
المسيح
هو الرجاء الوحيد
لعالمنا
إعداد
أسامة خليل أندراوس



إهداء إلى ذكرى الدكتور القس

منيس عبد النور

الراعي الشرفي لكنيسة قصر الدوبارة الإنجيلية

الذي ألهم وشجع الكثيرين على الكتابة والدفاع

الذي مهد الطريق وأرسى الأسس،

آية عرفان بالجميل، وحبٌ لا يموت!

المحرر

أسامة خليل أندراوس

WATER AND LIFE. VIRGINIA . U.S.A.



# النبوّة

## «وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَابَ»

(سورة العنكبوت ٢٩: ٢٧)

لماذا اختص الله بني إسرائيل بالنبوَّة والكتاب دون بقية الأمم؟ لأن حصر الحق الإلهي في أُمَّةٍ معتزلة عن كل الشعوب جنسًا، ولسانًا، وعادةً، ومقامًا، أضمن لسلامته من التضليل والتشويه؛ لأن الحق كان حينئذٍ طفلاً في مهده، وكان الناس منغمسين في الوثنية والجهل. لا يفرِّقون بين الحق والباطل. فاقتضت حكمة الله الفائقة انتداب رجل من خيرة الموجودين؛ ليثقِّفهُ ويفقِّههُ هو وذريته، ويطلعهم على معلناته الشيء بعد الشيء. فاصطفى إبراهيم، ثم ولده إسحق، فيعقوب فالأسباط الاثنى عشرة، وجعلهم أُمةً وأرسل إليهم الأنبياء والرُّسل وأوحى إليهم. ولأن يوجد الحق بين أُمَّةٍ واحدة خالصًا من الشوائب أفضل من أن يكون عاماً بين الشعوب وممتزجٌ بالباطل.

وقد وُجِدَ الحق عاماً وشائعًا منذ بدء الخليقة، ولكن لعدم اختصاص جماعة به طُمِست معالمه، وسقط البشر في عبادة الأوثان فيما عدا نوح وأهل بيته. فأهلكهم الله بالطوفان ومن ثمَّ اختص الله بني إسرائيل بالمحافظة على مُعْلناته، وكان ذلك أفضل لهم وللعالم أجمع كما دلَّت الأحوال وتجارب الزمان.

ويُوجَدُ سببٌ آخر، وهو أن الله ميَّزهم؛ لأنه كان عتيدًا أن يأتي المسيح من نسلهم حسب الجسد، حيث هو ابن الله الوحيد -حسب تعبير الإنجيل- وروحه -حسب تعبير القرآن-. وهو موضوع سروره، أكرم الأُمَّةَ التي سيجيء منها، ورفع من شأنها، وفضَّلها على العالمين. فاتخذهم شعبه الخاص، لهم تجلَّى، وإيَّاهم خاطب، وباسمهم تسمَّى، وبكنيتهم كُنِيَ، وفي وسط محلتهم اتَّخذ مقامًا قدس الأقداس، من أجْلِهم قتل أبكار المصريين، وحطَّم فرعون وجنوده، وأباد سبعة أُمم عظام وأورثهم بلادهم وقسَّمها بينهم بالقرعة.

ولنتأمَّل معاً فيما يرويه القرآن عن بني إسرائيل لعلنا نطَّلع على أسرار عظيمة لم

تدر في خُلدنا. فإنه يكاد يكون كالكتاب المقدَّس في هذا الموضوع. ففي التوراة أن الله دعى آدم ومن بعده شيئًا، فنوحاً، فإبراهيم، فإسحق، فبعقوب، فالأسباط. وميَّز سبط يهوذا واختار منه داود جد المسيح، قومٌ بعضهم نسل بعض ومثل ذلك يقول القرآن «إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى ٱلْعَالَمِينَ. ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ» (آل عمران ٣: ٣٣) وهنا نُكتة قرآنية، وهي قوله: «ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ» أي أن هؤلاء الأصفياء محدودون من طرفهم الأعلى والأدنى حتى لا يكون هناك وجه لإدخال أنساب غريبة بينهم، فالطرف الأعلى هو آدم، والأدنى مريم والدة المسيح، فكل أبٍ لا يكون مولودًا من الأنساب الذين قبله ووالدًا للذين بعدة إلى المسيح لا يكون من قائمة الأصفياء. والنتيجة!! يخرج من سلسلة الأصفياء «قابيل» من أولاد آدم، و«حام ويافث» من أولاد نوح، و«إسماعيل» من أولاد إبراهيم، و«عيسو» من أولاد يعقوب. لأن أُولئك، وإن كانوا في الحقيقة متناسلين من الآباء الأولين المصطفين، لكنهم ليسوا والدين للأنساب الذين بعدهم، بل عُزِلوا عن تلك الذرية المباركة، واندمجوا في الشعوب الأخرى؛ ومن أجل ذلك لا يُنتظر منهم ولا من ذريتهم أمرٌ لا رجاء ولا نبوَّة. ولئن لم يذكر القرآن آباء المسيح بالترتيب في موضع واحد كالإنجيل، ولكنه ذَكَرَ ما فيه الدلالة القاطعة، فذكر في الآية التي مرَّت آدم ونوح وإبراهيم وآل عمران، ذَكَرَ في غيرها إسحق ويعقوب، وفي غيرها داود وسليمان، وفي غيرها مريم، وشهد بأنهم ذرية بعضها من بعض، وأنهم صفوة الله من خلقه. وهنا نأتي على بعض مزاياهم العظيمة بالترتيب حسب النصوص القرآنية :

أولًا: ميَّزهم برحمته وبركاته كما في قوله خطاباً لسارة زوجة إبراهيم «قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ رَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ» (سورة ١١: ٧٣)

ثانيًا: خصَّهم بالنبوَّة والكتاب كما في قوله: «وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَابَ» (سورة العنكبوت ٢٩: ٢٧). الإشارة هنا إلى ذرية إبراهيم من إسحق وليس من إسماعيل، ومن يعقوب وليس من عيسو، كما هو واضح من لفظ الآية ومن آيات أُخرى كثيرة كقوله: «لَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ٱلْكِتَابَ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُولِي ٱلْأَلْبَابِ»

(سورة غافر ٤٠: ٥٣)

ثالثًا: خصَّهم بالمُلْك كما في «وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ ٱلطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى ٱلْعَالَمِينَ» (سورة الجاثية ٤٥: ١٦)

رابعًا: خصَّهم بالعِلْم كما في «لَقَدْ ٱخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ ٱلْعَالَمِينَ» (سورة الدخان ٣٢:٤٤)

خامسًا: أورثهم الأرض المقدَّسة كما في قوله خطاباً من موسى إلى قومه «يَا قَوْمِ ٱدْخُلُوا ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللّٰهُ لَكُمْ وَلاَ تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ» (سورة المائدة ٥: ٢١)

ومن تلك الآيات أن العالم يتبارك من أرض بني إسرائيل، ليس من أي أرضٍ غيرها، والمعنى أنهم يتباركون بواسطة بني إسرائيل سكان تلك الأرض؛ لأن الأرض ذاتها لا تكون بركة للعالمين، ويوافق هذه البُشرى وعْد الله لإبراهيم وكذلك لإسحاق ويعقوب أن من نسله تتبارك جميع قبائل الأرض؛ وعلى ذلك قوله: «وَنَادَى مَلاَكُ ٱلرَّبِّ إِبْرَاهِيمَ ثَانِيَةً مِنَ ٱلسَّمَاءِ. وَقَالَ: «بِذَاتِي أَقْسَمْتُ يَقُولُ ٱلرَّبُّ، أَنِّي مِنْ أَجْلِ أَنَّكَ فَعَلْتَ هٰذَا ٱلْأَمْرَ، وَلَمْ تُمْسِكِ ٱبْنَكَ وَحِيدَكَ، أُبَارِكُكَ مُبَارَكَةً، وَأُكَثِّرُ نَسْلَكَ تَكْثِيراً كَنُجُومِ ٱلسَّمَاءِ وَكَٱلرَّمْلِ ٱلَّذِي عَلَى شَاطِئِ ٱلْبَحْرِ، وَيَرِثُ نَسْلُكَ بَابَ أَعْدَائِهِ، وَيَتَبَارَكُ فِي نَسْلِكَ جَمِيعُ أُمَمِ ٱلْأَرْضِ، مِنْ أَجْلِ أَنَّكَ سَمِعْتَ لِقَوْلِي». ويخبرنا الكتاب المقدَّس أن الله ظهر ليعقوب وقال له: «أَنَا ٱلرَّبُّ إِلٰهُ إِبْرَاهِيمَ أَبِيكَ وَإِلٰهُ إِسْحَاقَ. ٱلْأَرْضُ ٱلَّتِي أَنْتَ مُضْطَجِعٌ عَلَيْهَا أُعْطِيهَا لَكَ وَلِنَسْلِكَ. وَيَكُونُ نَسْلُكَ كَتُرَابِ ٱلْأَرْضِ، وَتَمْتَدُّ غَرْباً وَشَرْقًا وَشِمَالًا وَجَنُوبًا. وَيَتَبَارَكُ فِيكَ وَفِي نَسْلِكَ جَمِيعُ قَبَائِلِ ٱلْأَرْضِ» (تكوين ٢٢،٢٦). وبقيت أنساب بني إسرائيل معروفة بحسب أسباطهم حتى جاء السيِّد المسيح له المجد.

ومما تقدَّم يظهر جليًا أمران جديران بالالتفات :

الأول: إن النبوَّة والكتاب والرسالة والمُلْك وكلُّ ما من شأنه هداية الناس، وإرشادهم، وتثقيف عقولهم، وتهذيب أخلاقهم إلى غير ذلك مختصٌ ببني إسرائيل، كميراث لهم من الله لا ينازعهم فيه غريبٌ، ولا يشاطرهم فيه أحدٌ. فبنو إسرائيل هم هُداة العالم، ومعلِّموا المسكونة. ومَن لم يهتدِ بهداهم ضلَّ سواء السبيل.

الثاني: إن بني إسرائيل إنما أُختُصّوا بهذا الامتياز العظيم، وفُضِّلوا على العالمين لاشتمالهم على سلسلة الآباء الذين أتى منهم السيِّد المسيح مخلِّص

البشرية، الذي قدَّم نفسهُ كفَّارة عن خطايا العالم أجمع، ذلك الشخص العظيم المدفوع إليه وله كل سلطان مما في السماوات وما في الأرض. كلمة الله وروحه المشهود له من الآباء والأنبياء، وعليه رجائهم، وبه تتعلَّق آمالهم. وقد رأينا كيف أن القرآن يقودنا إليه لأنه يباركنا. فإن آدم ونوح وإبراهيم وداود وسليمان الكل يشيرون إلى صبي بيت لحم على ذراعي أُمِّهِ -مختارة الله- فلا تضلُّوا عنه، ولا يغرنكم به الغرور فآمِن به واخلص.

لأنه هكذا
احَبَّ
اللّــهُ
العَـالمَ حَتَّى بَذَلَ إبْنَـهُ الوَحِيْدِ لِكَيْ
لايَهلِكَ
كُلّ مَنْ
يُؤمِنْ بِهِ
بَلْ تَكُونُ
لَهُ الحَيٰوةُ
الأبَدِيَّةُ
انجيل يوحنا
١٦:٣

# ٢- مكانة العذراء مريم في القرآن

«إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ ٱلْعَالَمِينَ»
(سورة آل عمران ٣: ٤٢)

أنبأنا القرآن أن الله طهّر العذراء مريم واصطفاها على نساء العالمين، ومعناه صريحٌ أي أن الله اختارها وفضَّلها على نساء العالمين. ثم إن الله أبلغها هذا الخبر الجليل على يد جوقةٍ من الملائكة، كما يُستفاد من القول: «إِذْ قَالَتْ ٱلْمَلاَئِكَةُ يَا مَرْيَمُ..إلخ» (سورة آل عمران ٣: ٤٢) ويشير إلى مكانة العذراء مريم هذه قوله: «إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَا عِيسَىَ ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىَ وَالِدَتِكَ» (سورة المائدة٥:١١٠). «وَجَعَلْنَاهَا وَٱبْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ»

وهنا يخطر سؤالٌ هام، وهو لأي سببٍ أكرمها الله هذا الإكرام؟! حيث اصطفاها دون نساء العالمين. ألكونها تلد رسولًا من أُولي العزم فقط؟! فالرُسُل أُولو العزم كثيرون، ولم تُذْكَر لهم أُمٌ بكرامة تستحق الذِّكر بجانب مريم. فلماذا خُصَّت أم السيِّد المسيح بالنعمة العظمى والدرجة العليا؟! فالآية لا ترفع مريم على النساء فقط، بل ترفعها على الأنبياء والرُّسُل؛ لأنه لم يرد قط نبأٌ كهذا في حق نبي أو رسول، لا في القرآن ولا في التوراة، وجاء في الإنجيل أن مريم نفسها فكَّرت في سبب هذا التعظيم، حين جاءها الملاك بالبشرى، وقال لها في مقدمة خطابه: «سَلاَمٌ لَكِ أَيَّتُهَا ٱلْمُنْعَمُ عَلَيْهَا! اَلرَّبُّ مَعَكِ. مُبَارَكَةٌ أَنْتِ فِي ٱلنِّسَاءِ» وقال أيضاً عنها: «فَلَمَّا رَأَتْهُ ٱضْطَرَبَتْ مِنْ كَلاَمِهِ، وَفَكَّرَتْ مَا عَسَى أَنْ تَكُونَ هٰذِهِ ٱلتَّحِيَّةُ!» (لو ١: ٢٩) نعم إن تعظيمًا كهذا لا تزُفُّهُ الملائكة إلى مريم خطيبة يوسف النجار إلَّا لحكمة بالغة تطنُّ لها الآذان، ويُرَدِّدُ صداها العالم.

أما سبب ذلك فهو كما في الإنجيل، لما أراد الله بحسب نعمته الفائقة أن يقدِّم فداءً أبديًا عن الجنس البشري، ويفتح بابًا للخلاص بالإيمان. كان لازمًا لإتمام ذلك أن يتجسَّد المسيح، أو بعبارة أُخرى يتَّحد جوهر كلمة الله بالإنسان في شخص ربنا

ومخلِّصنا سيِّدنا المسيح؛ اقتضى اصطفاء إناء بشري طاهر ليتمّ منه ذلك التجسُّد؛ فاصطفى مريم خير نساء العالم. ونعلم ذلك مما أجاب به جبريل مريم حين أخذها العجب من تحيته «فَقَالَ لَهَا ٱلْمَلاَكُ: «لاَ تَخَافِي يَا مَرْيَمُ، لِأَنَّكِ قَدْ وَجَدْتِ نِعْمَةً عِنْدَ ٱللّٰهِ. وَهَا أَنْتِ سَتَحْبَلِينَ وَتَلِدِينَ ٱبْناً وَتُسَمِّينَهُ يَسُوعَ. هٰذَا يَكُونُ عَظِيمًا، وَٱبْنَ ٱلْعَلِيِّ يُدْعَى، وَيُعْطِيهِ ٱلرَّبُّ ٱلْإِلٰهُ كُرْسِيَّ دَاوُدَ أَبِيهِ، وَيَمْلِكُ عَلَى بَيْتِ يَعْقُوبَ إِلَى ٱلْأَبَدِ، وَلاَ يَكُونُ لِمُلْكِهِ نِهَايَةٌ». فَقَالَتْ مَرْيَمُ لِلْمَلاَكِ: «كَيْفَ يَكُونُ هٰذَا وَأَنَا لَسْتُ أَعْرِفُ رَجُلًا؟» فَأَجَابَ ٱلْمَلاَكُ: «اَلرُّوحُ ٱلْقُدُسُ يَحِلُّ عَلَيْكِ، وَقُوَّةُ ٱلْعَلِيِّ تُظَلِّلُكِ، فَلِذٰلِكَ أَيْضاً ٱلْقُدُّوسُ ٱلْمَوْلُودُ مِنْكِ يُدْعَى ٱبْنَ ٱللّٰهِ. وَهُوَذَا أَلِيصَابَاتُ نَسِيبَتُكِ هِيَ أَيْضاً حُبْلَى بِٱبْنٍ فِي شَيْخُوخَتِهَا، وَهٰذَا هُوَ ٱلشَّهْرُ ٱلسَّادِسُ لِتِلْكَ ٱلْمَدْعُوَّةِ عَاقِرًا، لِأَنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ غَيْرَ مُمْكِنٍ لَدَى ٱللّٰهِ». فَقَالَتْ مَرْيَمُ: «هُوَذَا أَنَا أَمَةُ ٱلرَّبِّ. لِيَكُنْ لِي كَقَوْلِكَ». فَمَضَى مِنْ عِنْدِهَا ٱلْمَلاَكُ»؟ (لو ١: ٣٠-٣٨)

ومن نعمة الله على مريم أنها آمنت ببشارة جبرائيل وهي خارقة لناموس الطبيعة، فضلاً عن كونها فريدة في بابها. وليست غرابة البشرى في كونها تلد ولم تعرف رجلاً، بل كونها تلد صبيًا يُدعى ابن الله ويجلس على كرسي داود أبيه إلى الأبد، ولا يكون لملكه نهاية. فما أغرب أن تحبل عذراء، وأغرب من ذلك بما لا يُقاس أن تحمل في بطنها جوهر الكلمة، وتلد طفلاً هو في الحقيقة شخصٌ إلهيٌ تُحَارُ فيه عقول الحكماء. أما مريم فقد اصطفاها الله بحيث تؤمن بهذه الأعجوبة الفائقة بلا ارتياب، وتكون هي محل الأعجوبة. وقد روى لنا الكتاب المقدَّس أخبارًا كثيرة عن مشاهير المؤمنين تدل على عظم إيمانهم واعتصامهم بكلمة الله، ولكن بمقابلتهم مع مريم يظهر جليًا فضلها عليهم. سُمِّي إبراهيم أبا المؤمنين، وأُمِرنا أن نتخذه مثالاً ننسج على منواله، ومع ذلك لَمَّا بشَّره ملاك الرب بابن في شيخوخته استبعد إمكان ذلك، ولم يقبلها إلَّا بعد تأكيدها وتكرارها. وموسى كليم الله لم يقبل رسالته إلَّا بعد تكرار الطلب منه، وهو يستصعب ويستعظم المسؤلية، إلى أن وثق من قدرة الله بآيات ومعجزات كما في بداية سفر الخروج. وزكريا، وهو رجلٌ جمع بين العِلْم والتقوى والكهنوت، عندما بُشِّرَ بيوحنا (يحي) وهو شيخ وامرأته عاقر، تُليَت عليه البشارة في الهيكل وهو يتعبَّد. فلعبت في قلبه يد الريبة، ومثَّلت

دورًا أُخِذ عليه، وعُوقِب على قلَّة إيمانه بالخرس إلى أن تمَّت البشارة ورأى الصبي محمولًا على يديه. فأين هؤلاء من مريم التي مع كونها بُشِرت بأعجوبة تُعَدُّ في جانبها كلُّ عجائب التاريخ مسائل اعتيادية؟ لم تشكّ بل صدَّقت وأخذت الخبر بقبول وفرح. حقاً لقد «ٱصْطَفَاهَا ٱللّٰهُ عَلَىَ نِسَاءِ ٱلْعَالَمِينَ». ولا نعلم هل مريم اطَّلعت على النبوَّت المتعلِّقة بأمرها في التوراة كقوله: «وَلٰكِنْ يُعْطِيكُمُ ٱلسَّيِّدُ نَفْسُهُ آيَةً: هَا ٱلْعَذْرَاءُ تَحْبَلُ وَتَلِدُ ٱبْناً وَتَدْعُو ٱسْمَهُ «عِمَّانُوئِيلَ»» (إشعياء ٧:١٤). وقوله لإبراهيم: «وَيَتَبَارَكُ فِي نَسْلِكَ جَمِيعُ أُمَمِ ٱلْأَرْضِ» (تك ٢٢:١٨). غير أنها فطنت إلى تلك النبوَّات بعد البشارة كما يتبيَّن ذلك من تسبحتها الشهيرة: «فَقَالَتْ مَرْيَمُ: «تُعَظِّمُ نَفْسِي ٱلرَّبَّ، وَتَبْتَهِجُ رُوحِي بِٱللّٰهِ مُخَلِّصِي، لأَنَّهُ نَظَرَ إِلَى ٱتِّضَاعِ أَمَتِهِ. فَهُوَذَا مُنْذُ ٱلْآنَ جَمِيعُ ٱلْأَجْيَالِ تُطَوِّبُنِي، لِأَنَّ ٱلْقَدِيرَ صَنَعَ بِي عَظَائِمَ، وَٱسْمُهُ قُدُّوسٌ، وَرَحْمَتُهُ إِلَى جِيلِ ٱلْأَجْيَالِ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَهُ. صَنَعَ قُوَّةً بِذِرَاعِهِ. شَتَّتَ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ بِفِكْرِ قُلُوبِهِمْ. أَنْزَلَ ٱلْأَعِزَّاءَ عَنِ ٱلْكَرَاسِيِّ وَرَفَعَ ٱلْمُتَّضِعِينَ. أَشْبَعَ ٱلْجِيَاعَ خَيْرَاتٍ وَصَرَفَ ٱلْأَغْنِيَاءَ فَارِغِينَ. عَضَدَ إِسْرَائِيلَ فَتَاهُ لِيَذْكُرَ رَحْمَةً، كَمَا كَلَّمَ آبَاءَنَا. لِإِبْرَاهِيمَ وَنَسْلِهِ إِلَى ٱلْأَبَدِ» (إنجيل لوقا ١ :٤٦ —٥٥)

وإن القرآن لم يغفل تلك النقطة الهامة وهي مراجعة مريم للنبوَّت المتعلِّقة بالبشارة وتطبيقها على حالها، وخروجها من ذلك الميدان مكلَّلة بالظفر، ويدل على ذلك قول القرآن: «وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَانِتِينَ» (سورة التحريم ٦٦: ١٢). فقوله «وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا» يدل على تصديقها لبشارة جبريل، وقوله: «وَكُتُبِهِ» يدل على تصديقها للنبوَّات الواردة في الكتب بشأنها، وتطبيقها على واقع حالها. بل يدل على أعظم من ذلك إذ يدل على أن تلك النبوَّات هي خلاصة الكتب المقدَّسة، وهذه حقيقة راهنة عند المطّلعين على الإنجيل؛ لأنه يفيد بأن المسيح هو روح النبوَّة أي خلاصة الكتاب المقدَّس كُلّه.




تعظم نفسي الرب وتبتهج روحي بالله مخلصي
تسبيح مريم العذراء في الإنجيل حسب البشير لوقا الاصحاح ١: ٤٦-٤٨

# ٣- إبراهيم خليل الله

«وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا، وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا».
(سورة النساء ٤: ١٢٥)

لَمَّا كان لإبراهيم المنزلة الرفيعة في الدين لدى اليهود والنصارى والمسلمين. رأيتُ أن أكتب كلمة عنه في هذه المقالات، مبنيَّة على هذه الآية: «ٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا» طلباً للوقوف على حقيقة دينه الذي قرَّبه من الله قُرْب الصديق إلى صديقه. لقد ورد في القرآن آياتٌ كثيرةٌ لبسط إبراهيم مما يوافق سيرته في التوراة، ومن جملتها قول القرآن: «إِذِ ٱبْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّالِمِينَ» (سورة البقرة ٢: ١٢٤). ولكن لم يكشف لنا القرآن القناع عن هذه الكلمات، بل تركها محجوبة بستار الغيب والغموض. وإنما يطنب الكتاب المقدَّس في أهميتها ويعلِّق عليها التوبة والخلاص. وكما نرى من قول القرآن: «تَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ» (سورة البقرة ٢: ٣٧). وإذا عَلِمْنا مغزى هذه الكلمات تتضح لنا حقيقة تلك الحنيفية التي دان بها إبراهيم حسب منطوق الآية، وكذلك يتضح دين آدم وكل آباء العهد القديم. ونستخرج من تلك القرون الغابرة أساسًا راسخًا وبرهانًا ساطعًا لإظهار الحق من الباطل.

وإن كان القرآن قد أخفى عنَّا مضمون هذه الكلمات، فقد أعلنتها التوراة بما لا يحتاج معه إلى مزيد في كل من سيرة آدم وإبراهيم. أَلَا وهي كلمات الوعد بالمخلِّص. وهذا هو النص الأول لتلك الكلمات من الكتاب المقدَّس في معرض العقوبة التي أوقعها الله على آدم وحواء والحيَّة خطابًا للحيَّة «وَأَضَعُ عَدَاوَةً بَيْنَكِ وَبَيْنَ ٱلْمَرْأَةِ، وَبَيْنَ نَسْلِكِ وَنَسْلِهَا. هُوَ يَسْحَقُ رَأْسَكِ، وَأَنْتِ تَسْحَقِينَ عَقِبَهُ» (تكوين ٣:١٥). وإذ سمع آدم هذا الوعد آمَنَ بأن الله سيرسِل إلى العالم مخلِّصًا من نسل المرأة يسحق رأس الحيَّة (الشيطان)، ومن أجل هذا الإيمان غفر الله له ذنبه وتاب عليه، إنه هو التوَّاب الرحيم.

ثم أنه على مر الزمان زاد الله من هذه «الكلمات» بياناً ووضوحاً حتى جاء إبراهيم، فلمَّا علم بها آمَنَ وفرح. وهذا نَصَّهُ كما جاء في الكتاب المقدَّس «وَقَالَ:«بِذَاتِي أَقْسَمْتُ يَقُولُ ٱلرَّبُّ، أَنِّي مِنْ أَجْلِ أَنَّكَ فَعَلْتَ هٰذَا ٱلْأَمْرَ، وَلَمْ تُمْسِكِ ٱبْنَكَ وَحِيدَكَ،أُبَارِكُكَ مُبَارَكَةً، وَأُكَثِّرُ نَسْلَكَ تَكْثِيراً كَنُجُومِ ٱلسَّمَاءِ وَكَٱلرَّمْلِ ٱلَّذِي عَلَى شَاطِئِ ٱلْبَحْرِ، وَيَرِثُ نَسْلُكَ بَابَ أَعْدَائِهِ، وَيَتَبَارَكُ فِي نَسْلِكَ جَمِيعُ أُمَمِ ٱلْأَرْضِ، مِنْ أَجْلِ أَنَّكَ سَمِعْتَ لِقَوْلِي» (تكوين ٢٢: ١٦–١٨).

هذه هي الكلمات التي يشير إليها القرآن بقوله «وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات...الخ». ولم يذكرها فآمَنَ إبراهيم بهذه الكلمات على سعة معناها وغناها الفائق. آمَنَ بأنه يأتي مخلِّص من نسله ويبارك جميع أُمم الأرض. وقد كرر الله هذا الوعد مرارًا في مناسبات مختلفة، فقال الله له في المرة الأولى عندما دعاه من بيت أبيه ليهاجر إلى الأرض المقدَّسة «وَقَالَ ٱلرَّبُّ لِأَبْرَامَ: «ٱذْهَبْ مِنْ أَرْضِكَ وَمِنْ عَشِيرَتِكَ وَمِنْ بَيْتِ أَبِيكَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي أُرِيكَ. فَأَجْعَلَكَ أُمَّةً عَظِيمَةً وَأُبَارِكَكَ وَأُعَظِّمَ ٱسْمَكَ، وَتَكُونَ بَرَكَةً. وَأُبَارِكُ مُبَارِكِيكَ وَلَاعِنَكَ أَلْعَنُهُ. وَتَتَبَارَكُ فِيكَ جَمِيعُ قَبَائِلِ ٱلْأَرْضِ» (تكوين ١٢: ١–٣). وذُكرت هذه الهجرة في القرآن وهذه نصها «ونجيناهُ ولوطًا إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين» (سورة الأنبياء ٢١: ٧١). وأعاده إليه المرة الثانية عندما اعتزل عن لوط وأصبح وحيداً في غربته (تكوين ١٣: ١٤–١٧). ثم أعاده إليه مرة ثالثة لمناسبة رجوعه من كسرة كدرلعومر والملوك الذين معه (تكوين ١٥)، وأعاده إليه مرة رابعة بمناسبة تغيير اسمه من «إبرام» إلى «إبراهيم» وتغيير اسم زوجته من «ساراي» إلى «سارة» (تكوين ١٧) وأعاده إليه مرة خامسة بمناسبة ضيافته للملائكة (تكوين ١٨)، وفي هذا الإصحاح والذي قبله يتعيَّن بالضبط أن المخلِّص الموعود به يأتي من نسل إبراهيم وزوجته سارة لا من زوجة أُخرى وقد جاءت هذه الضيافة في القرآن «وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِٱلْبُشْرَى قَالُوا سَلاَمًا قَالَ سَلاَمٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ. فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ. وَٱمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ. قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ». (سورة هود ٦٩–٧٢). وكرَّر الله الوعد لإبراهيم مرة سادسة بمناسبة أنه أمره أن

يقدِّم ابنه إسحاق ذبيحة فأطاع (تكوين ٢٢).

فهل رأيتم أيها المؤمنون بأي أسلوب واضح كرر الله هذه «الكلمات» لإبراهيم موجزاً ومطنبًا ومجملًا ومفصَّلًا؟! وكيف صدَّق إبراهيم الوعد وأسلم نفسه تمامًا للعناية الإلهية واثقًا في قدرة الله الفائقة وأقواله الصادقة حتى أنه لما أُمِرَ بأن يقدِّم ابنه الموعود به ذبيحة أطاع ولم يشك في كلمات الله -بخلاف محمد (راجع سورة يونس ١٠: ٩٤). إذ آمَنَ إبراهيم بأن الله قادرٌ أن يقيمه من الأموات ويتمم ما وعد به في أمْرِهِ. وقد أشار الرسول بولس إلى هذه الحادثة بقوله «بِٱلْإِيمَانِ قَدَّمَ إِبْرَاهِيمُ إِسْحَاقَ وَهُوَ مُجَرَّبٌ - قَدَّمَ ٱلَّذِي قَبِلَ ٱلْمَوَاعِيدَ، وَحِيدَهُ، ٱلَّذِي قِيلَ لَهُ: «إِنَّهُ بِإِسْحَاقَ يُدْعَى لَكَ نَسْلٌ». إِذْ حَسِبَ أَنَّ ٱللهَ قَادِرٌ عَلَى ٱلْإِقَامَةِ مِنَ ٱلْأَمْوَاتِ أَيْضًا، ٱلَّذِينَ مِنْهُمْ أَخَذَهُ أَيْضًا فِي مِثَالٍ» (عبرانيين ١١: ١٧)

ولَمَّا كان إبراهيم مؤمنًا بهذه «الكلمات» المبشِّرة بمجيء المخلِّص من نسله ليبارك كل الأرض-كما شرحنا- حُسِب كأنه آمَنَ بالمسيح، وكأنه شاهده عيانًا، (أو بعبارة أُخرى حُسِبَ كأنه مسيحي). قال السيِّد المسيح مخاطبًا اليهود: «أَبُوكُمْ إِبْرَاهِيمُ تَهَلَّلَ بِأَنْ يَرَى يَوْمِي فَرَأَى وَفَرِحَ» (يوحنا ٨: ٥٦). وقد نال الخلاص والقبول عند الله بهذا الإيمان، وعليه قال الرسول بولس: «فَآمَنَ إبراهيم بِٱللهِ فَحُسِبَ له برًّا» (رومية ٤: ٣). أي آمَنَ بوعود الله الفائقة التي لا يمكن إتمامها بحسب الطُرُق الطبيعية. إذ كانت زوجته عجوزًا وهو كذلك (تكوين ٥: ٦). وقد عَلِمنا مما تقدَّم أن تلك «الكلمات» التي خلص بها آدم وإبراهيم وغيرهما إنما هي الوعد بيسوع المسيح ليس إلَّا.

فإن أحببتم أيها الموحِّدون أن تموتوا على دين أبيكم إبراهيم، وتكونوا مقرَّبين إلى الله فآمِنوا بالمسيح كما آمَنَ هو (أي كربٍّ ومخلِّصٍ)، فهل قبلته مخلِّصًا لك؟ وهل اعتمدت على ذبيحته التي قدَّمها على الصليب كفَّارة عن خطاياك وخطايا العالم أجمع. فقد قال المسيح: «أَنَا هُوَ ٱلْبَاب إِنْ دَخَلَ بِي أَحَدٌ فَيَخْلُصْ».

# ٤- الخطية

## «وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى» (سورة الأنعام ٦: ١٦٤)

أي إن كل إنسان يحمل خطيئة نفسه ويتمتَّع ببرِّها، لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت «فمن يعمل مثقال ذرَّةٍ خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرَّة شرًّا يره» (قرآن). وإن كان الناس في الدنيا أقارب وإخوانًا وعشائر وقبائل، فهُم في الآخرة يُعرَضُون على الله فرداً فرداً «يومئذ تُعرَضُون لا تخفي منكم خافية» (قرآن). «وكلهم آتية يوم القيامة فرد» (قرآن). لا ينفع الأخ أخاه ولا الولد أُمَّهُ ولا أباه ولا زوجته، «يود المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذ ببنيه وصاحبيه وأخيه وفصيلته التي تؤيه» (قرآن). «واتّقوا يوماً لا تجزي نفسٌ عن نفسٍ شيئاً. ولا يُقبل منها عدلٌ ولا تنفعها شفاعةٌ ولا هُم يُنصَرون» (قرآن). بل «فَإِنَّ ٱلَّذِي يَزْرَعُهُ ٱلْإِنْسَانُ إِيَّاهُ يَحْصُدُ أَيْضاً» (غلاطية ٦: ٧). ففي الدنيا يستعطي الفقير من الغني، ويجد الغريب مأوى عند ذوي الكرم، ويقترض المُعسِرُ من الموسر والكل يتعاونون كأنهم رجُلٌ واحد. أما في الآخرة «لا تجزي نفسٌ عن نفسٍ شيئًا»). فإن استغاث أحدٌ من أهل النار بأحدٍ من أهل الجنة فلا يستفيد منه شيئًا، «وَنَادَى أَصْحَابُ ٱلنَّارِ أَصْحَابَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللهُ قَالُوا إِنَّ ٱللهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَافِرِينَ» (سورة الأعراف ٧: ٥٠). فالدنيا دار عمل وجهاد. اليوم زرعٌ وغدًا حصاد، فاعملوا في دنياكم لآخرتكم، ولا تتَّكِلوا على برِّ أحدٍ من ذوي الصلاح والدرجات العلى «فمن يعمل مثقال ذرَّةٍ خيرًا يره، ومن يعمل مثقال ذرَّة شرًّا يره» (قرآن). فلا تستشفعوا بوليّ ولا نبي إذ ليس الأنبياء والرسل إلّا منذرين ومبشِّرين، وليس موقفهم يوم الدين إلّا موقف الشهداء، لا موقف الشفعاء «قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ» (سورة الأعراف ٧: ٥٣) «رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ» (سورة النساء ٤: ١٦٥). فالإنسان مأجور على عمله فقط أمَّا عمل الغير لا يضر ولا ينفع، ولا يضع ولا يرفع. وكل بني آدم خطَّاؤون، والذين نراهم على خير لا بد من أنهم كانوا يومًا ما على شرٍّ وتابوا، وكما ورد في الحديث «وكل بني آدم خطَّاءٌ وخير الخطَّائين التوَّابون». «ولو

يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك على ظهرها من دابةٍ» (النحل ١٦: ٢١).

وحيث لا ينجو الإنسان إلَّا بعمله -وجميع أعمال بني آدم مختلطة بالخطايا- كانت النتيجة هلاك الكل في جهنم. فلذا دبَّر الله برحمته الواسعة طريقة شرعية للإنسان يمكِّنه بواسطتها أن يخلُص بعمل غيره، وأعلنها الله لنا في كتابه، وكلَّفنا أن نُخْبِرَ بها كل الناس، وهي أنه أقام عنَّا وصيًا شرعيًا خالٍ من كل ذنب يقوم مقامنا، ويكون عمله كعملنا، وشخصه كشخصنا. ولإيضاح هذه الفكرة أكثر نسوق المثال التالي: «إذا مات رجُلٌ عن ٱبنٍ قاصرٍ وترك له إرثاً، يعيِّن له القاضي وصيًا شرعيًا، فإذا باع هذا الوصي من متاع القاصر أو اشترى له، يُعتَبر شرعًا أن البائع والمشتري هو القاصر لا الوصي، ومتى وصل هذا القاصر إلى سن البلوغ لا يجوز له إلغاء تصرُّفات وصيِّهِ سواء ربح أو خسر. وليس له أن يحتج عليه بأنه لم يكن هو الذي اختاره لنفسه وصيًّا بل القاضي». وبهذا يصبح عمل الواحد عمل الآخر رضي أم لم يرضَ.

عزيزي القاريء، إن الذي يلزم إقامة وصي شرعي للإنسان -مع أنه راشد ومسؤل- هو طبيعته الأثيمة المجبول عليها حينما صوِّر في بطن أُمِهِ، «إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِٱلسُّوءِ» (سورة يوسف ١٢: ٥٣).«قُتِلَ ٱلْإِنسان ما أَكْفَرَهُ». (قرآن) «أو لَمْ ير ٱلإنسان إنَّا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيمٌ مبينٌ». (قرآن). وقال النبي داود: «هٰئَنَذَا بِٱلْإِثْمِ صُوِّرْتُ وَبِٱلْخَطِيَّةِ حَبِلَتْ بِي أُمِّي» (مز ٥١: ٥). وقال: «زَاغَ ٱلْأَشْرَارُ مِنَ ٱلرَّحِمِ. ضَلُّوا مِنَ ٱلْبَطْنِ، مُتَكَلِّمِينَ كَذِباً» (مز ٥٨: ٣). وإن جميع الخطايا صادرة من هذه الطبيعة الفاسدة. ولو افترضنا أن الله وضع عن أحد وزره الذي أثقل ظهره وصار بلا خطية لا يلبث حتى يخطئ من جديد نظرًا لطبيعته الفاسدة الأثيمة، كما يحدث بالضبط إذا نزحت عين ماءٍ في النهار وتفيض في الليل.

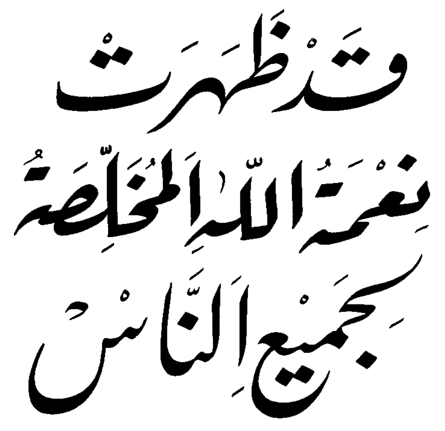
ولمَّا كانت هذه الطبيعة موروثة من آدم بسبب سقوطه، ودعتنا لارتكاب المحرَّم منذ سن التكليف، وأوقعتنا تحت طائلة العقاب، لاق بعدل الله ورحمته إيجاد امتياز لصالح البشر يعادل تلك الخسارة العظمى التي دهمته وهو في عالم الغيب؛ فأقام له وصيًّا شرعيًا كاملاً يُصلِح له هذا الخلل ويزيل الضرر. وإلى هذا يشير الكتاب المقدَّس بقوله: «فَإِذاً كَمَا بِخَطِيَّةٍ وَاحِدَةٍ (معصية آدم) صَارَ ٱلْحُكْمُ

إِلَى جَمِيعِ ٱلنَّاسِ لِلدَّيْنُونَةِ، هٰكَذَا بِبِرٍّ وَاحِدٍ (بِرّ الوصي الشرعي يسوع المسيح) صَارَتِ ٱلْهِبَةُ إِلَى جَمِيعِ ٱلنَّاسِ، لِتَبْرِيرِ ٱلْحَيَاةِ» (رومية ٥ : ١٨)

وإذا عُلِمَ سبب إقامة الوصي الشرعي على الجنس البشري يلزمنا أن نعرف من هو الوصي، هو كلمة الله وروحه يسوع المسيح الذي حُبل به بدون زرع بشر، بل بقوَّة الروح القدس. نعم هو ذاك الإنسان الكامل المعصوم من الطبيعة الخاطئة الذي لم يكن للشيطان سبيلٌ إليه لنخْسِهِ.

أيُّها المسلمون، انظروا إلى القرآن تجدونه كم مجَّد السيِّد المسيح ورفع قدره حتى دعاه روح الله وكلمته، وميَّزه في كل أدوار حياته عن جميع الأنبياء؛ لأنه ما من نبي إلَّا وتاب الله عليه ووضع عنه وزره الذي أنقض ظهره بشهادة القرآن. أما المسيح فلم تُذكر عنه توبة ولا استغفار ولا نخسة شيطان عند الولادة، بل عوض عن ذلك أيَّده الله بالروح القدس منذ حبلت به أُمُّه، وعندما ولدته وفي كل أيام حياته. عاش قدُّسًا طاهرًا أحيى أموات وأحيى قلوب، شفى أمراض، وغفر خطايا، وعلَّم الناس مشيئة الله، وعمل كما علَّم، وفي نهاية حياته قدَّم نفسه حسب مشورة الله الأزلية كفَّارة عن خطايا البشر. فمن آمَن به يخلص، ومن لم يؤمن به يُدَن ويمكث عليه غضب الله إلى الأبد. وقد قال الإنجيل: «هُوَذَا حَمَلُ ٱللهِ ٱلَّذِي يَرْفَعُ خَطِيَّةَ ٱلْعَالَمِ (أي الذبح العظيم للفداء)» (إنجيل يوحنا ١:٢٩). وقال أيضًا: «لِأَنَّهُ قَدْ ظَهَرَتْ نِعْمَةُ ٱللهِ ٱلْمُخَلِّصَةُ لِجَمِيعِ ٱلنَّاسِ، مُعَلِّمَةً إِيَّانَا أَنْ نُنْكِرَ ٱلْفُجُورَ وَٱلشَّهَوَاتِ ٱلْعَالَمِيَّةَ، وَنَعِيشَ بِٱلتَّعَقُّلِ وَٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَى فِي ٱلْعَالَمِ ٱلْحَاضِرِ» (تيطس ٢: ١١-١٢)

عزيزي القاريء، اتخذ المسيح مخلِّصًا لك، ووصيًا شرعيًا حين لا ينفعك مال ولا بنون ولا أولياء ولا أنبياء ولا مُرسلون.



# ٥- خروج آدم من الجنة

«وَقُلْنَا يَا آدَمُ ٱسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّالِمِينَ» (سورة البقرة ٢: ٣٥)

هذه الآية دليل على حُسن قصد الله نحو الإنسان، فإنهُ خلقهُ صالحًا، وأكرم مثواهُ، وجعل له نصيباً جميلًا من تعطُّفاته الإلهية والحديث معه، وأسكنه مع زوجته جنات عدن يأكل ما طاب له من أثمارها الشهية إلَّا شجرة واحدة نهاه عن الأكل منها.

لم نعلم كم لبث آدم في حالة السعادة هذه حتى استهواه الشيطان وزيَّن له تلك الشجرة فسوَّلت له نفسه أن يأكل منها، فأكل وعصى ربه. وفي هذه اللحظة سقط من رتبة القداسة والصلاح الفطري الذي جُبِلَ عليه، وصار ذا طبيعة أثيمة ونفس أمَّارة بالسوء. وفي الحال طرده الله من الجنة وأقام عليها ملاكًا حاملًا سيفًا من نار لحمايتها.

وقد قررت التوراة والقرآن هذه القصة بعبارات تكاد تكون تستوي لفظًا ومعنى (انظر سفر التكوين ٢، ٣) واقرأ سورة البقرة «فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ» (سورة البقرة ٢: ٣٦)

وأهم مسألة نستلفت إليها أنظاركم في هذه القصة هي سقوط آدم، وبعبارة أُخرى سقوط الجنس البشري. كان آدم صالح الخصال سعيد الحال، ولكنه بكل أسف عصى ربه وسقط في الخطيئة وطُرد من الجنة وصارت الخطية له طبعًا، والتعب له عملًا، والموت له ختامًا. وما جرى من الويلات لآدم سرى على الجنس البشري كله، فما من إنسان على وجه الأرض ناج من شقاء الحياة الدنيا على أصنافها، نفسٌ خاطئةٌ، وقلبٌ مكسورٌ، وجسدٌ مُتعَبٌ، ودمعٌ مسكوب، وقبر فاغرٌ فاه، وعذابٌ خالدٌ. فما أكثر ويلاتك يا ابن آدم!! لقد أشار القرآن إلى سقوط الإنسان بعبارة وافية

حيث قال: «لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ، ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ» (سورة التين ٩٥: ٤،٥). ويشبه ذلك ما قاله سليمان الحكيم: «اُنْظُرْ. هٰذَا وَجَدْتُ فَقَطْ: أَنَّ ٱللّٰهَ صَنَعَ ٱلْإِنْسَانَ مُسْتَقِيماً، أَمَّا هُمْ فَطَلَبُوا ٱخْتِرَاعَاتٍ كَثِيرَةً» (الجامعة ٧: ٢٩)

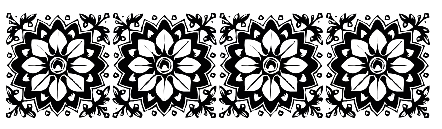
يولد الإنسان نفسه مطبوعة على الفساد، مستعدة بكيانها الطبيعي لارتكاب كل معصية وانتهاك كل حُرمة، وتبدو عليه ملامح هذه السيئات في طفولته، وتنمو معه كلما نمى حتى تأخذ شكلها الطبيعي. قال النبي داود مشيراً إلى هذه الحقيقة: «هٰئَنَذَا بِٱلْإِثْمِ صُوِّرْتُ وَبِٱلْخَطِيَّةِ حَبِلَتْ بِي أُمِّي» (مزمور ٥١: ٥)، لا فرق في ذلك بين الشعوب الراقية والشعوب المتخلفة النامية. فإن الكل مولودون خُطاةً أشقياء، بمعنى أن جرثومة الخطية ممتزجة مع دمهم ولحمهم، وسارية في أفكارهم وعواطفهم، وفي الروح والنفس. وفضلاً عن كون ذلك ثابتًا بكلمة الله فتدل عليه الأدلة العملية والاختبارات، وواقع تحت الحس.

وهنا نسأل من أين ورث الإنسان هذه الطبيعة الفاسدة؟ فإنه لا يسعنا أن نقول إن الله خلقه هكذا؛ لأن الله قدُّسٌ وعادلٌ وصالحٌ وحاشا له أن يخلق الإنسان خاطئًا فاذكر قول القرآن: «وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَٱللّٰهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ ٱللّٰهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللّٰهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ» (سورة الأعراف ٧: ٢٨). فوجب إذاً التسليم بأن الله خلق الإنسان صالحًا، ولكنهُ سقط باختياره وهذا يوافق قول القرآن: «لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ» (سورة التين) وبالتالي يجب أن نسلِّم أن الإنسان ورث هذه الطبيعة الفاسدة من الإنسان الأول بواسطة التناسل الطبيعي، وهذه خُلاصة قولنا في السقوط.

ولكن الله لما سقط الإنسان الأول لم يتركه وشأنه، بل دبَّر له الله طريقًا للخلاص وهذا هو الغرض الجوهري والغاية العُظمى من إرسال الأنبياء والرُّسل بالوحي إلى الناس. ويشرح الكتاب المقدَّس طريق الخلاص شرحًا وافيًا، ويسمي هذا الشرح في التوراة نبوَّات، وفي العهد الجديد إنجيلاً أي أخبارًا مفرِّحة سارةً للجنس البشري. وخلاصتها في التوراة أنه سيأتي من ذرية إبراهيم وإسحاق ويعقوب إنسانٌ عجيب قدير يخلِّص البشر من خطاياهم. وخلاصتها في العهد الجديد أي الإنجيل قوله: «صَادِقَةٌ هِيَ ٱلْكَلِمَةُ وَمُسْتَحِقَّةٌ كُلَّ

قُبُولٍ: أَنَّ ٱلْمَسِيحَ يَسُوعَ جَاءَ إِلَى ٱلْعَالَمِ لِيُخَلِّصَ ٱلْخُطَاةَ ٱلَّذِينَ أَوَّلُهُمْ أَنَا» (تيموثاوس الأولى ١: ١٥). فالتوراة ما هي إلّا نبوّات وتعاليم ورسوم تشير إلى المسيح باعتباره أنه سيأتي، والإنجيل تشير إليه باعتباره أنه أتى ليخلِّص العالم ويهب له حياة أبدية. فنحن لا نقرأ خبر سقوط آدم وطرده من الجنة بالحزن والأسى، ولا نقرأ في كتابنا مجرد قصص عن بلاد خُرِّبت وأُخرى عُمِّرت، وقرونٌ بادت وأُخرى نشأت، ورسولٌ مات ورسولٌ بُعِثَ، وشريعةٌ نُسِخت وشريعةٌ وُضِعت إلى غير ذلك مما لا تعلُّق له بقضيتنا إلّا بما يزيدنا همًّا على همومنا وكربًا على كروبنا، بل نقرأ في الإنجيل عن مُخلِّصٍ كبيرٍ عظيمٍ حيّ في السماء هو مسيح الله، قدَّم نفسهُ كفَّارة عن خطايانا بل عن خطايا العالم أجمع، وإن كل من يؤمن به ويتَّكل على دمه المسفوك على الصليب يخلُصُ ويتقدَّس. وقيل في الإنجيل: «وَلٰكِنِ ٱلْآنَ قَدْ قَامَ ٱلْمَسِيحُ مِنَ ٱلْأَمْوَاتِ وَصَارَ بَاكُورَةَ ٱلرَّاقِدِينَ. فَإِنَّهُ إِذِ ٱلْمَوْتُ بِإِنْسَانٍ، بِإِنْسَانٍ أَيْضًا قِيَامَةُ ٱلْأَمْوَاتِ. لأَنَّهُ كَمَا فِي آدَمَ يَمُوتُ ٱلْجَمِيعُ هٰكَذَا فِي ٱلْمَسِيحِ سَيُحْيَا ٱلْجَمِيعُ» (كورنثوس الأولى ١٥: ٢٠–٢٢). فيا له من إنجيل مبارك وخبر سعيد يمحو عن القلب الكئيب كل أثر من حكاية السقوط، ويفيض فيه ينبوعٌ من السرور والسلام لا تقدر مصائب الدهر على تكدير صفائهما.

ولما رأينا القرآن ينبئنا عن سقوط أبينا آدم وشقاء الجنس البشري، ولكنه يسدل الستار على تلك الكلمات التي تلقَّاها آدم من ربه فتاب عليه، أحببنا أن نخبركم ببقية القصة أو بالحري نخبركم بجانبها المضيء كما أُخبِرْتُمْ بالجانب المظلم، لكي يكون لكم تعزية وسلام، وتعرفون الدواء كما عرفتم الداء. فبواسطة آدم طُردنا من الجنة وأصبحنا هدفًا لكل مصاب، ولكن بالمسيح نذهب إلى فردوس النعيم ونتمتع بالحياة الأبدية. بواسطة آدم وُلدنا من بالخطية، ولكن بالمسيح نُولد ولادة ثانية من الله، بمعنى أنه يخلق فينا طبيعة جديدة صالحة، وقد قال الإنجيل: «وَأَمَّا كُلُّ ٱلَّذِينَ قَبِلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ سُلْطَاناً أَنْ يَصِيرُوا أَوْلاَدَ ٱللهِ، أَيِ ٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱسْمِهِ. اَلَّذِينَ وُلِدُوا لَيْسَ مِنْ دَمٍ، وَلاَ مِنْ مَشِيئَةِ جَسَدٍ، وَلاَ مِنْ مَشِيئَةِ رَجُلٍ، بَلْ مِنَ ٱللهِ» (يوحنا ١: ١٢، ١٣)



# ٦- أسعد ثلاثة أيام في تاريخ البشرية

«وَٱلسَّلاَمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ ويَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا» (سورة مريم ٣٣)

توجد ثلاثة أيام كانت سعادة وسلام للجنس البشري، ولا تزال، ولا يمكن أن يسعد إنسانٌ على وجه الأرض ما لم يؤمن بهذه الأيام الثلاثة! ويأخذ لنفسه حظًا من بركاتها المُتاحة للكل على السواء.

هي أيام ثلاثة ولكنها كفيلة أن تُصلح من شئون الإنسان ما أفسدته ألوف الأعوام، وتمحو من التاريخ آيات البؤس والأحزان، وترفع قدر ابن آدم إلى أعلى مراتب الكمال، وتبلِّغه من النعيم والسعادة مُنتهى الغايات والآمال. وها سأشرح لكم حكايتها العجيبة لكي تنالوا من خيرها.

إن القرآن يُشير إلى هذه الأيام الثلاثة بقول موجز شامل لجوهر الإيمان الثمين الذي به يمكنكم أن تخلصوا. فقال على لسان عيسى ابن مريم: «وَٱلسَّلاَمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ ويَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا» (سورة مريم ١٩:٣٣) غير أن هذا القول الموجز يحتاج إلى شرح حتى نقف على ما انطوى عليه من بشائر السلام والمسرَّات، التي نُودي بها للجنس البشري في تلك الأرض المقدسة في الأيام الثلاثة المشار إليها، ووردت أخبارها في كل العالمين.

«وَٱلسَّلاَمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ» لم تر الدنيا يوم أسعد من اليوم الذي وُلِد فيه السيد المسيح، ولولا ذلك لم يفد القرآن أن جوقة من الملائكة حملت بشائر الحبل به إلى أمه، وإن الله اصطفاها وطهّرها على نساء العالمين من قبل الحبل؛ استعدادًا وصونًا لذلك المولود العظيم. وقال الإنجيل إن يوم وُلِدَ المسيح جاء جمهورٌ من الجند السماوي إلى الأرض وبشَّروا الناس بهذا الخبر السعيد بين هتاف وتسبيح «وَكَانَ فِي تِلْكَ ٱلْكُورَةِ رُعَاةٌ مُتَبَدِّينَ يَحْرُسُونَ حِرَاسَاتِ ٱللَّيْلِ عَلَى رَعِيَّتِهِمْ، وَإِذَا مَلاَكُ ٱلرَّبِّ وَقَفَ بِهِمْ، وَمَجْدُ ٱلرَّبِّ أَضَاءَ حَوْلَهُمْ، فَخَافُوا خَوْفًا عَظِيمًا. فَقَالَ لَهُمُ ٱلْمَلاَكُ: «لاَ تَخَافُوا. فَهَا أَنَا أُبَشِّرُكُمْ بِفَرَحٍ عَظِيمٍ يَكُونُ لِجَمِيعِ ٱلشَّعْبِ: أَنَّهُ وُلِدَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ فِي مَدِينَةِ دَاوُدَ مُخَلِّصٌ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱلرَّبُّ. وَهٰذِهِ لَكُمُ ٱلْعَلاَمَةُ: تَجِدُونَ طِفْلًا مُقَمَّطًا مُضْجَعًا فِي مِذْوَدٍ». وَظَهَرَ بَغْتَةً مَعَ ٱلْمَلاَكِ جُمْهُورٌ

مِنَ ٱلْجُنْدِ ٱلسَّمَاوِيِّ مُسَبِّحِينَ ٱللّٰهَ وَقَائِلِينَ: «ٱلْمَجْدُ لِلّٰهِ فِي ٱلْأَعَالِي، وَعَلَى ٱلْأَرْضِ ٱلسَّلاَمُ، وَبِٱلنَّاسِ ٱلْمَسَرَّةُ».» (لوقا ٢: ٨–١٤). إن معنى الكلام هنا ظاهرٌ، وهو أن يوم ولادة المسيح يوم سعيد لكل العالم؛ لأنه مسيح الله الذي مسحه لخلاص كل الناس من الخطية، ومن دينونة الله العادلة. وقد أجاد الملاك وأفاد بقوله: «هَا أَنَا أُبَشِّرُكُمْ بِفَرَحٍ عَظِيمٍ يَكُونُ لِجَمِيعِ ٱلشَّعْبِ» نعم إنه خبر مفرِّحٌ فرحًا عظيمًا وشاملًا، ألا تفرح باليوم الذي وُلِدَ فيه السيد المسيح؟! ألستَ محتاجًا للخلاص كبني جنسك؟! وإذا كنتَ محتاجًا، فلماذا لا تقبل ذلك المخلِّص العظيم؟! إن المسيح وُلِدَ من أجلك، وتلك البشارة لك، وهو يعرفك ويحبّك، ويدعوك من وقت لآخر، فلا تقسِّ قلبك عليه، ولا تسد أذنك عن ندائه، واذكر أن الملائكة الذين هم أغنياء عن الخلاص قد فرحوا بميلاد المسيح حيث هبطوا من منازلهم السماوية إليك ليجاملوك ويفرحوا لفرحك ويرتِّلوا لخلاصك. فكم بالحري يجب عليك أنت الخاطئ أن تفرح وتسبِّح الله دائمًا.

«ويَوْمَ أَمُوتُ» اليوم الثاني من الأيام الثلاثة المباركة يوم موت المسيح، وهنا أمرٌ عجيب مغاير لناموس الطبيعة، إذ لا يخطر على بال غير المطلع على الكتاب المقدَّس أن يوم موت السيد المسيح يوم سلام وسعادة للجنس البشري؛ والمعهود بين الناس أن يوم الموت يوم حزن وبكاء ونحيب، فيا للعجب! كيف يساوي القرآن بين يوم مشئوم في عُرْفِ الناس ويوم سعيد حتى قال: «وَٱلسَّلاَمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ ويَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا» وإن اطلعت على الإنجيل تر أن المسألة في غاية البساطة وهي أن المسيح مات فدية عن العالم من أجل ذلك السلام عليه يوم موته كما السلام عليه يوم ولادته. مات المسيح مصلوبًا على خشبة، مَيْتَةً مؤلمة ومهينة، وللكنه بذلك الموت الأليم والهوان العظيم كفَّر عن خطايانا ومنحنا بركة الخلاص. ومن المؤكد أن لا خلاص لإنسان على وجه الأرض إلَّا بدم المسيح وجميع الذين خلصوا من آدم إلى وقتنا هذا والذين يخلصون إلى انقضاء الدهر إنما يخلصون بدم المسيح. وقد تنبأ إشعياء النبي في التوراة عن موت المسيح الكفَّاري: «وَهُوَ مَجْرُوحٌ لأَجْلِ مَعَاصِينَا، مَسْحُوقٌ لأَجْلِ آثَامِنَا. تَأْدِيبُ سَلاَمِنَا عَلَيْهِ، وَبِجُبْرِهِ شُفِينَا. كُلُّنَا كَغَنَمٍ ضَلَلْنَا. مِلْنَا كُلُّ وَاحِدٍ إِلَى طَرِيقِهِ، وَٱلرَّبُّ وَضَعَ عَلَيْهِ إِثْمَ

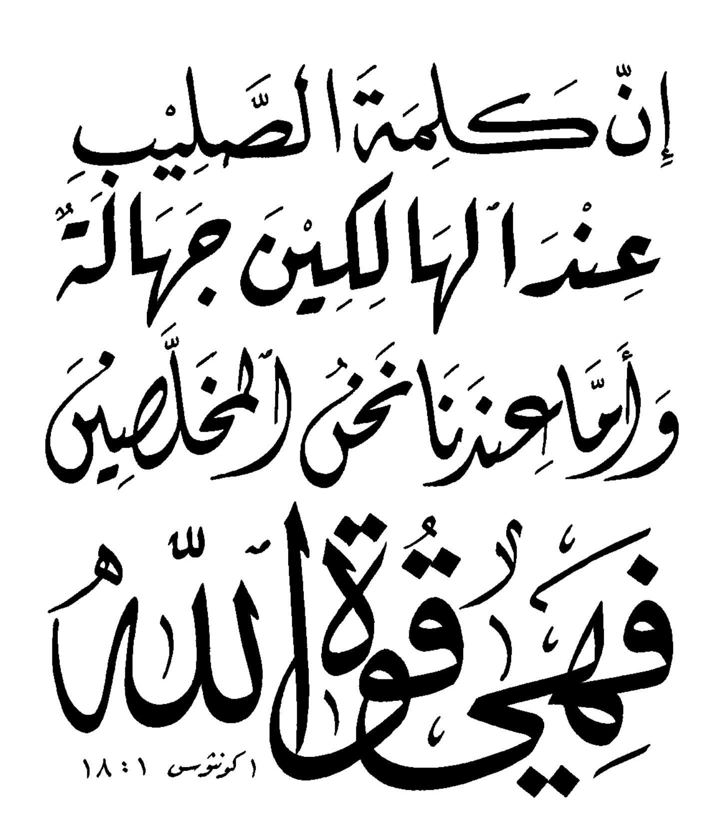
جَمِيعِنَا. ظُلِمَ أَمَّا هُوَ فَتَذَلَّلَ وَلَمْ يَفْتَحْ فَاهُ، كَشَاةٍ تُسَاقُ إِلَى ٱلذَّبْحِ، وَكَنَعْجَةٍ صَامِتَةٍ أَمَامَ جَازِّيهَا فَلَمْ يَفْتَحْ فَاهُ» (إشعياء ٥٣:٥-٧). وداود صاحب الزبور تنبأ عن موت المسيح الكفّاري بغاية البيان كأنه يروي لنا خبراً واقعًا أمام عينيه؛ لأن نبوّته توافق بالتمام ما هو مقررٌ عنه في الإنجيل إذ قال: «أَحَاطَتْ بِي ثِيرَانٌ كَثِيرَةٌ. أَقْوِيَاءُ بَاشَانَ ٱكْتَنَفَتْنِي. فَغَرُوا عَلَيَّ أَفْوَاهَهُمْ كَأَسَدٍ مُفْتَرِسٍ مُزَمْجِرٍ. كَٱلْمَاءِ ٱنْسَكَبْتُ. ٱنْفَصَلَتْ كُلُّ عِظَامِي. صَارَ قَلْبِي كَٱلشَّمْعِ. قَدْ ذَابَ فِي وَسَطِ أَمْعَائِي. يَبِسَتْ مِثْلَ شَقْفَةٍ قُوَّتِي، وَلَصِقَ لِسَانِي بِحَنَكِي، وَإِلَى تُرَابِ ٱلْمَوْتِ تَضَعُنِي. لأَنَّهُ قَدْ أَحَاطَتْ بِي كِلاَبٌ. جَمَاعَةٌ مِنَ ٱلأَشْرَارِ ٱكْتَنَفَتْنِي. ثَقَبُوا يَدَيَّ وَرِجْلَيَّ. أُحْصِي كُلَّ عِظَامِي، وَهُمْ يَنْظُرُونَ وَيَتَفَرَّسُونَ فِيَّ. يَقْسِمُونَ ثِيَابِي بَيْنَهُمْ، وَعَلَى لِبَاسِي يَقْتَرِعُونَ» (مزمور ٢٢: ١٢-١٩). ثم ورد في الإنجيل أخبارٌ مطوّلة عن صلبه من مقاضاة واقتسام ثيابه والاقتراع على لباسه إلى غير ذلك، وإن موته كان كفارة عن خطايا العالم أجمع بما شغل أكثر الإنجيل وأُشير إلى بعضها «فَحِينَئِذٍ أَسْلَمَهُ إِلَيْهِمْ لِيُصْلَبَ. فَأَخَذُوا يَسُوعَ وَمَضَوْا بِهِ. فَخَرَجَ وَهُوَ حَامِلٌ صَلِيبَهُ إِلَى ٱلْمَوْضِعِ ٱلَّذِي يُقَالُ لَهُ «مَوْضِعُ ٱلْجُمْجُمَةِ» وَيُقَالُ لَهُ بِٱلْعِبْرَانِيَّةِ «جُلْجُثَةُ» حَيْثُ صَلَبُوهُ، وَصَلَبُوا ٱثْنَيْنِ آخَرَيْنِ مَعَهُ مِنْ هُنَا وَمِنْ هُنَا، وَيَسُوعُ فِي ٱلْوَسْطِ. وَكَتَبَ بِيلاَطُسُ عُنْوَانًا وَوَضَعَهُ عَلَى ٱلصَّلِيبِ. وَكَانَ مَكْتُوبًا: «يَسُوعُ ٱلنَّاصِرِيُّ مَلِكُ ٱلْيَهُودِ». فَقَرَأَ هٰذَا ٱلْعُنْوَانَ كَثِيرُونَ مِنَ ٱلْيَهُودِ، لِأَنَّ ٱلْمَكَانَ ٱلَّذِي صُلِبَ فِيهِ يَسُوعُ كَانَ قَرِيبًا مِنَ ٱلْمَدِينَةِ. وَكَانَ مَكْتُوبًا بِٱلْعِبْرَانِيَّةِ وَٱلْيُونَانِيَّةِ وَٱللاَّتِينِيَّةِ. فَقَالَ رُؤَسَاءُ كَهَنَةِ ٱلْيَهُودِ لِبِيلاَطُسَ: «لَ تَكْتُبْ: مَلِكُ ٱلْيَهُودِ، بَلْ: إِنَّ ذَاكَ قَالَ أَنَا مَلِكُ ٱلْيَهُودِ». أَجَابَ بِيلاَطُسُ: «مَا كَتَبْتُ قَدْ كَتَبْتُ». ثُمَّ إِنَّ ٱلْعَسْكَرَ لَمَّا كَانُوا قَدْ صَلَبُوا يَسُوعَ، أَخَذُوا ثِيَابَهُ وَجَعَلُوهَا أَرْبَعَةَ أَقْسَامٍ، لِكُلِّ عَسْكَرِيٍّ قِسْمًا. وَأَخَذُوا ٱلْقَمِيصَ أَيْضًا. وَكَانَ ٱلْقَمِيصُ بِغَيْرِ خِيَاطَةٍ، مَنْسُوجاً كُلُّهُ مِنْ فَوْقُ. فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: «لَا نَشُقُّهُ، بَلْ نَقْتَرِعُ عَلَيْهِ لِمَنْ يَكُونُ». لِيَتِمَّ ٱلْكِتَابُ ٱلْقَائِلُ: «ٱقْتَسَمُوا ثِيَابِي بَيْنَهُمْ وَعَلَى لِبَاسِي أَلْقَوْا قُرْعَةً». (يوحنا ١٦:١٩-٢٤). أما كونه مات لأجل خطايانا فواضح قوله: «يَا أَوْلاَدِي، أَكْتُبُ إِلَيْكُمْ هٰذَا لِكَيْ لَا تُخْطِئُوا. وَإِنْ أَخْطَأَ أَحَدٌ فَلَنَا شَفِيعٌ عِنْدَ ٱلْآبِ، يَسُوعُ ٱلْمَسِيحُ ٱلْبَارُّ. وَهُوَ كَفَّارَةٌ لِخَطَايَانَا. لَيْسَ لِخَطَايَانَا فَقَطْ، بَلْ لِخَطَايَا كُلِّ ٱلْعَالَمِ أَيْضًا» (يوحنا الأولى ٢: ١-٢)

«وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا» لو لم يقم المسيح لبطل رجاؤنا بالخلاص، ولكنه قام في الثالث من موته كما قال الرسول: «فَإِنَّنِي سَلَّمْتُ إِلَيْكُمْ فِي ٱلْأَوَّلِ مَا قَبِلْتُهُ أَنَا أَيْضاً: أَنَّ ٱلْمَسِيحَ مَاتَ مِنْ أَجْلِ خَطَايَانَا

حَسَبَ ٱلْكُتُبِ، وَأَنَّهُ دُفِنَ، وَأَنَّهُ قَامَ فِي ٱلْيَوْمِ ٱلثَّالِثِ حَسَبَ ٱلْكُتُبِ، وَأَنَّهُ ظَهَرَ لِصَفَا ثُمَّ لِلاِثْنَيْ عَشَرَ. وَبَعْدَ ذٰلِكَ ظَهَرَ دَفْعَةً وَاحِدَةً لِأَكْثَرَ مِنْ خَمْسِمِئَةِ أَخٍ، أَكْثَرُهُمْ بَاقٍ إِلَى ٱلْآنَ. وَلٰكِنَّ بَعْضَهُمْ قَدْ رَقَدُوا. وَبَعْدَ ذٰلِكَ ظَهَرَ لِيَعْقُوبَ، ثُمَّ لِلرُّسُلِ أَجْمَعِينَ. وَآخِرَ ٱلْكُلِّ كَأَنَّهُ لِلسِّقْطِ ظَهَرَ لِي أَنَا». (١كو ١٥: ٣-٨)

فالخلاص بالإيمان بموته وقيامته من أجلك قال: «لِأَنَّكَ إِنِ ٱعْتَرَفْتَ بِفَمِكَ بِٱلرَّبِّ يَسُوعَ، وَآمَنْتَ بِقَلْبِكَ أَنَّ ٱللهَ أَقَامَهُ مِنَ ٱلْأَمْوَاتِ، خَلَصْتَ. لِأَنَّ ٱلْقَلْبَ يُؤْمَنُ بِهِ لِلْبِرِّ، وَٱلْفَمَ يُعْتَرَفُ بِهِ لِلْخَلَاصِ» (رومية ١٠: ٩، ١٠)

فهذه هي الثلاثة الأيام المباركة، جعلك الله ممن أمن بها آمين



# ٧- الخطر العظيم

## (أي خطر إهمال كلمات الرحيم)

«ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ» (سورة الأنعام ١٥٤)

الحمد لله الهادي. الذي إلى الحق يدعو وينادي. أما بعد، فإني أوجِّه أفكاركم إلى هذه الآية الكريمة لأنكم قليلًا ما تتأملون فيها، وقليلًا ما تفحصون معانيها، وتتلونها كلما عُرضت عليكم في سياق القرآن مرارًا كثيرًا، وتعرفون إعرابها. ولكن للأسف لا تنظرون نظرة واحدة إلى معناها ولا إلى العمل بها، ومثل ذلك في القرآن كثير، وإن أحصيتموه يبلغ نحو مائة آية أو أكثر.

عزيزي القارئ المسلم، أخلِ ذهنك من كل تشيُّع وتعصُّب وتحامُل، وتأمَّل معي كيف أن القرآن يشهد بتنزيل التوراة والزبور والإنجيل على موسى وداود وعيسى، ويصفها بكل وصف جليل من الكمال والتفصيل والهداية والرحمة إلى غير ذلك كما ترى في آية المقالة. إلَّا أن بعض المسلمين لغرضٍ ما يلتمسون لأنفسهم عذرًا عن عدم دراستهم هذه الكتب الثلاثة زاعمين أن قد وقع فيها تحريفٌ وتبديلٌ، وزعم البعضُ أنها منسوخةٌ، وادَّعى قومٌ أنها مُتضمَّنةٌ في القرآن ولا لزوم لدراستها ما دامت واردة ضمنًا في القرآن. وهذه كلها مزاعم باطلة ودعاوي كاذبة افتروها من عند أنفسهم، ولدينا شهادات جمَّة نقتصر على ذكر القليل منها حُبًّا في الاختصار.

جاء في سورة المائدة شهادة صريحة تفيد أن التوراة بعد ظهور الإسلام كانت صحيحة وكان واجب العمل بها «وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ ٱلتَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللهِ» (سورة المائدة ٥: ٤٣). ويسجِّل لنا «ابن كثير» المفسِّر الإسلامي المشهور وجود نسخة سليمة من التوراة كانت بين يدي نبي الإسلام نفسه، وعندما جاء بعض اليهود يسألونه عن عقوبة الزنا، فأخذ الوسادة التي كان يجلس عليها ووضع التوراة فوقها، ثم أمسك بالتوراة وقال: «آمنت بك وبمن أنزلك». وقد وردت مثل هذه الشهادة

في حق الإنجيل، وزيد عليها أن لعن من لا يقيم أحكامه وعلى ذلك قوله: «وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ ٱللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْفَاسِقُونَ» (سورة المائدة ٥: ٤٧). وقوله: «فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَأُونَ ٱلْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ ٱلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ» (سورة يونس ١٠: ٩٤). وقال بعض المفسرين إن الخطاب هنا للأمة وليس للرسول، فسواء كان للأمة أو للرسول يجب على كل مسلم امتثالًا لهذه الآية إذا وجد اختلافاً بين الكتاب المقدَّس والقرآن فلا يرجع إلى الأخير بل إلى الأول، ولكنهم قد خالفوا هذا القانون الذهبي وعكسوه على خط مستقيم؛ لأنهم كلما وجدوا اختلافًا بين الكتابين يطعنون في الأول بدون تدبُّرٍ ولا تروٍ في هذه الآية ولا في أمثالها مثل قوله: «وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ» (سورة الأنبياء ٢١: ٧).

وإذا علمتم أن التوراة والإنجيل والزبور كلام الله، وأنه واجب العمل بما فيه من أمر ونهي، فيلزم كل مسلم أن يقتنيه ويقرأه، وإن غَمُض عليه شيء منه فيسأل عنه أهله وهم يشرحون لهم ما يرغبون شرحه. والكتاب المقدَّس في الغالب بسيط العبارة سهل المأخذ سامي المعنى، فهو كتاب بديع ينزع إلى الجوهر قدر المُستطاع بدون أن يعلِّق أهمية كبرى على الحرف.

وإتمامًا للفائدة أنقل لكم شذرات منه لتقفوا على بعض معانيه السامية ومقاصده الشريفة نحو بني آدم، مما لا يمكن أن يحوم حول الأفكار البشرية بدون إعلان إلهي وأتى بها مرتَّبة حسب ظروف الإنسان. فورد فيه أن كل البشر أخطاؤا واحتاجوا إلى تبرير إلهي لأجل خلاصهم. ومن ذلك قوله: «كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ: «أَنَّهُ لَيْسَ بَارٌّ وَلاَ وَاحِدٌ. لَيْسَ مَنْ يَفْهَمُ. لَيْسَ مَنْ يَطْلُبُ ٱللهَ. ٱلْجَمِيعُ زَاغُوا وَفَسَدُوا مَعًا. لَيْسَ مَنْ يَعْمَلُ صَلاَحًا لَيْسَ وَلَا وَاحِدٌ».(رومية ٣: ١٠-١٢)

وورد أن بالناموس أي بالأمر بالمعروف والنهي عن المُنكر لا يمكن أن يخلص الإنسان ومن ذلك قوله: «إِذْ نَعْلَمُ أَنَّ ٱلْإِنْسَانَ لاَ يَتَبَرَّرُ بِأَعْمَالِ ٱلنَّامُوسِ، بَلْ بِإِيمَانِ يَسُوعَ ٱلْمَسِيحِ، آمَنَّا نَحْنُ أَيْضًا بِيَسُوعَ ٱلْمَسِيحِ، لِنَتَبَرَّرَ بِإِيمَانِ يَسُوعَ لَا بِأَعْمَالِ ٱلنَّامُوسِ. لِأَنَّهُ بِأَعْمَالِ ٱلنَّامُوسِ لَا يَتَبَرَّرُ جَسَدٌ مَا» (غلاطية ٢: ١٦).

وورد أن الله عيَّن مخلِّصًا للجنس

البشري ومن ذلك قوله: «صَادِقَةٌ هِيَ ٱلْكَلِمَةُ وَمُسْتَحِقَّةٌ كُلَّ قُبُولٍ: أَنَّ ٱلْمَسِيحَ يَسُوعَ جَاءَ إِلَى ٱلْعَالَمِ لِيُخَلِّصَ ٱلْخُطَاةَ ٱلَّذِينَ أَوَّلُهُمْ أَنَا» (تيموثاوس الأولى ١: ١٥).

وورد أن هذا المخلِّص قادرٌ على تأدية عمله، ومن ذلك قوله: «فَمِنْ ثَمَّ يَقْدِرُ أَنْ يُخَلِّصَ أَيْضًا إِلَى التَّمَامِ ٱلَّذِينَ يَتَقَدَّمُونَ بِهِ إِلَى ٱللهِ، إِذْ هُوَ حَيٌّ فِي كُلِّ حِينٍ لِيَشْفَعَ فِيهِمْ» (عبرانيين ٧: ٢٥).

وورد أن الله يحب العالم ولم يشأ أن يعذِّب أحدًا ومن ذلك قوله: «لِأَنَّهُ هٰكَذَا أَحَبَّ ٱللهُ ٱلْعَالَمَ حَتَّى بَذَلَ ٱبْنَهُ ٱلْوَحِيدَ، لِكَيْ لاَ يَهْلِكَ كُلُّ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ بَلْ تَكُونُ لَهُ ٱلْحَيَاةُ ٱلْأَبَدِيَّةُ» (يوحنا ٣: ١٦).، وقوله: «قُلْ لَهُمْ: حَيٌّ أَنَا يَقُولُ ٱلسَّيِّدُ ٱلرَّبُّ، إِنِّي لَا أُسَرُّ بِمَوْتِ ٱلشِّرِّيرِ، بَلْ بِأَنْ يَرْجِعَ ٱلشِّرِّيرُ عَنْ طَرِيقِهِ وَيَحْيَا. إِرْجِعُوا ٱرْجِعُوا عَنْ طُرُقِكُمُ ٱلرَّدِيئَةِ. فَلِمَاذَا تَمُوتُونَ يَا بَيْتَ إِسْرَائِيلَ؟» (حزقيا ٣٣: ١١).

وورد في الكتاب التعليم الكافي لترقية آداب وأخلاق الإنسان إلى أرفع الدرجات التي يتصورها العقل ومن ذلك قوله: «سَمِعْتُمْ أَنَّهُ قِيلَ: تُحِبُّ قَرِيبَكَ وَتُبْغِضُ عَدُوَّكَ. وَأَمَّا أَنَا فَأَقُولُ لَكُمْ: أَحِبُّوا أَعْدَاءَكُمْ. بَارِكُوا لاَعِنِيكُمْ. أَحْسِنُوا إِلَى مُبْغِضِيكُمْ، وَصَلُّوا لِأَجْلِ ٱلَّذِينَ يُسِيئُونَ إِلَيْكُمْ وَيَطْرُدُونَكُمْ، لِكَيْ تَكُونُوا أَبْنَاءَ أَبِيكُمُ ٱلَّذِي فِي ٱلسَّمَاوَاتِ، فَإِنَّهُ يُشْرِقُ شَمْسَهُ عَلَى ٱلْأَشْرَارِ وَٱلصَّالِحِينَ، وَيُمْطِرُ عَلَى ٱلْأَبْرَارِ وَٱلظَّالِمِينَ. لِأَنَّهُ إِنْ أَحْبَبْتُمُ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَكُمْ، فَأَيُّ أَجْرٍ لَكُمْ؟ أَلَيْسَ ٱلْعَشَّارُونَ أَيْضًا يَفْعَلُونَ ذٰلِكَ؟ وَإِنْ سَلَّمْتُمْ عَلَى إِخْوَتِكُمْ فَقَطْ، فَأَيَّ فَضْلٍ تَصْنَعُونَ؟ أَلَيْسَ ٱلْعَشَّارُونَ أَيْضاً يَفْعَلُونَ هٰكَذَا؟ فَكُونُوا أَنْتُمْ كَامِلِينَ كَمَا أَنَّ أَبَاكُمُ ٱلَّذِي فِي ٱلسَّمَاوَاتِ هُوَ كَامِلٌ» (متى٥: ٤٣- ٤٨).

وورد في الكتاب أن المسيحيين يغلبون العالم ولكن ليس بالسيف بل بدم المسيح ومن ذلك قوله: «قَدْ كَلَّمْتُكُمْ بِهٰذَا لِيَكُونَ لَكُمْ فِيَّ سَلاَمٌ. فِي ٱلْعَالَمِ سَيَكُونُ لَكُمْ ضِيقٌ، وَلٰكِنْ ثِقُوا: أَنَا قَدْ غَلَبْتُ ٱلْعَالَمَ» (يوحنا ١٦: ٣٣). «لِأَنَّ كُلَّ مَنْ وُلِدَ مِنَ ٱللهِ يَغْلِبُ ٱلْعَالَمَ. وَهٰذِهِ هِيَ ٱلْغَلَبَةُ ٱلَّتِي تَغْلِبُ ٱلْعَالَمَ: إِيمَانُنَا» (يوحنا الأولى ٥: ٤). وقوله خطاباً للمؤمنين: «طُوبَى لِلْمَسَاكِينِ بِٱلرُّوحِ، لِأَنَّ لَهُمْ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَاوَاتِ. طُوبَى لِلْحَزَانَى، لِأَنَّهُمْ يَتَعَزَّوْنَ. طُوبَى لِلْوُدَعَاءِ، لِأَنَّهُمْ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ. طُوبَى لِلْجِيَاعِ وَٱلْعِطَاشِ إِلَى ٱلْبِرِّ، لِأَنَّهُمْ يُشْبَعُونَ. طُوبَى لِلرُّحَمَاءِ، لِأَنَّهُمْ يُرْحَمُونَ. طُوبَى لِلأَنْقِيَاءِ ٱلْقَلْبِ، لِأَنَّهُمْ يُعَايِنُونَ ٱللهَ. طُوبَى لِصَانِعِي ٱلسَّلاَمِ، لِأَنَّهُمْ أَبْنَاءَ ٱللهِ يُدْعَوْنَ.طُوبَى لِلْمَطْرُودِينَ مِنْ أَجْلِ ٱلْبِرِّ، لِأَنَّ لَهُمْ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَاوَاتِ. طُوبَى لَكُمْ إِذَا عَيَّرُوكُمْ وَطَرَدُوكُمْ وَقَالُوا عَلَيْكُمْ كُلَّ كَلِمَةٍ شِرِّيرَةٍ، مِنْ

أَجْلِي، كَاذِبِينَ. اِفْرَحُوا وَتَهَلَّلُوا، لِأَنَّ أَجْرَكُمْ عَظِيمٌ فِي ٱلسَّمَاوَاتِ، فَإِنَّهُمْ هٰكَذَا طَرَدُوا ٱلْأَنْبِيَاءَ ٱلَّذِينَ قَبْلَكُمْ» (متى ٥: ٣-١٢)



«أَبُولُسُ، أَمْ أَبُلُّوسُ، أَمْ صَفَا، أَمِ ٱلْعَالَمُ، أَمِ ٱلْحَيَاةُ، أَمِ ٱلْمَوْتُ، أَمِ ٱلْأَشْيَاءُ ٱلْحَاضِرَةُ، أَمِ ٱلْمُسْتَقْبَلَةُ. كُلُّ شَيْءٍ لَكُمْ. وَأَمَّا أَنْتُمْ فَلِلْمَسِيحِ، وَٱلْمَسِيحُ لِلّٰهِ» (كورنثوس الأولى ٣: ٢٢، ٢٣)

وفقني الله وإياكم إلى أقوم طريق

# ٨- روح الله

## «إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ» (سورة النساء ٤: ١٧١).

هذه الآية القرآنية التي تشرح مكانة المسيح وشخصيَّته، وتصرِّح بكون المسيح كلمة الله وبكونه روحًا منه. فاستلفت نظركم إلى الجزء الأخير منها وهو قوله: «روح الله»

ولَمَّا وقف العلماء المسلمين على مدلول هذه الآية وارتبكوا في الأمر، ولكنهم ضغطوا على عقولهم وضمائرهم وجعلوا يستنبطون تفسيرًا يلائم على وجهٍ ما قول القرآن إن المسيح روح الله وفي نفس الوقت يجعلونه إنسانًا ليس إلَّا. ومع اجتهاداتهم لم يقدروا أن يتخلَّصوا من النتيجة الطبيعية لهذه الآية. فقال الرازي: بعد إطالة الفكر: «إن المسيح روح الله لأنه واهب الحياة للعالمَ في أديانهم». وقال البيضاوي: «(وروحٌ منه) أي ذو روحٌ صدر منه لا يتوسط ما يجري مجرى الأصل والمادة له». وقال أيضًا: «لأنه يحي الأموات أو القلوب». وهذه الأقوال التي بها أرادوا أن يخرجوا من الورطة زادتهم تورُّطًا وارتباكًا؛ لأن هذه الألقاب لا ينبغي إسنادها إلى نبي أو رسول ولا رئيس الملائكة المقربين، بل إلى الله!

أولًا: وقد سُمِي المسيح روح الله «لأنه واهب الحياة للعالم في أديانهم» ولأنه «يحي الأموات والقلوب» فمن ذا من المخلوقين يستطيع أن يهب حياة للعالم حتى أنه يحي الأموات والقلوب؟! قد جاء عن بعض الأنبياء أنهم أقاموا ميتًا، ولكنه لم يجيء عنهم أنهم أحيوا القلوب، فإن إحياء القلوب خاصٌ بروح الله القادر على كل شيء ويُعبَّر عنه في الإنجيل بالولادة الجديدة أو الولادة الثانية، أي أن مَن أحيا الله قلبه فقد وُلِدَ ولادة ثانية بمعنى أنه حصل على طبيعة جديدة راغبة في القداسة، كما أن طبيعته القديمة راغبة في الشر. ولا يقدر على تغيير طبيعة الإنسان البشرية الشريرة إلى طبيعة سماوية صالحة إلَّا روح الله أي الله. وعلى ذلك قوله: «شَاءَ فَوَلَدَنَا بِكَلِمَةِ ٱلْحَقِّ لِكَيْ نَكُونَ بَاكُورَةً مِنْ خَلاَئِقِهِ» (يعقوب ١: ١٨). ويقول في هذا الصدد: «اَلَّذِينَ وُلِدُوا لَيْسَ مِنْ دَمٍ، وَلاَ مِنْ مَشِيئَةِ جَسَدٍ، وَلاَ مِنْ مَشِيئَةِ رَجُلٍ، بَلْ مِنَ ٱللَّهِ» (يوحنا ١:

١٣). ترون من هذا كله أنه لو لم يكن المسيح إلهًا لما قدر على إحياء القلوب؛ وعليه فتفسير العالِمَيْن المذكورَيْن يزيد عبارة القرآن بيانًا عن لاهوت المسيح.

وإذا نظرنا بالإجمال في كل ما قيل عن شخص المسيح وأوصافه نجده كله من وادٍ واحد أي من طبقة واحدة في الجلال والرفعة غير المتناهية. فلو قيل عنه إنه روح الله وفي موضع آخر أسنِد إليه صفة أو مكانة تدل النقص لكان هناك أن يرفض المسلمون لاهوت المسيح، غير أنه لم يرد عنه ذِكْرٌ في كل القرآن يخالف كونه روح الله بل بالعكس كل ما ورد يؤيد ذلك وإليك البيان.

لنفرض أن روح الله غير المنظور أراد أن يظهر للبشر كإنسان وأن يولد كطفل، أليس أن من المناسب بل من الواجب أن التي تلده وتحبل به يكون بدون زرع بشر؟! وأليس من الواجب أن تكون أفضل أُم على وجه الخليقة؟! فنرى ذلك مكتملًا في ولادة المسيح أعظم اكتمال، فإنه يشهد بولادته بدون زرع بشر، وأن الله طهَّر أمه واصطفاها على نساء العالمين.

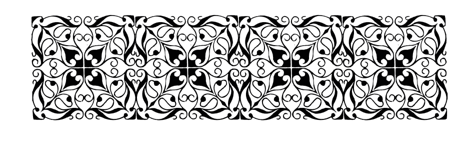
ثانيًا: ماذا يجب أن تكون صفات ذلك الإنسان الذي هو روح الله؟! ألا يجب أن يكون قدُّسًا في كل شيء؟! فقد كان المسيح هكذا، فإن البشر من أولهِّم إلى آخرهم أنبياء ورُسُل كلهم أخطأوا إلى الله. أما المسيح فلم يخطئ قط لا بفكر ولا بقول ولا بعمل ولا بسهو، كما أنه لم يكن هناك عملٌ صالحٌ من أعمال الرحمة والإحسان والتعليم إلَّا عمله، وفوق ذلك كله إذ وجد العالم محتاجًا لفداء فلم يتأخر أن يفديه بدمه الكريم. فهل يتصور العقل صلاحًا وكمالًا وقداسةً أكثر مما أظهره المسيح؟! حقًّا أنه روح الله المتجسِّد أو بعبارة أخرى كلمة الله المتجسِّد لأن أعماله شاهد صادق على لاهوته.

ثالثًا: ماذا يجب أن تكون قُدرة ذلك الإنسان الذي هو روح الله؟! لا بد أن تكون قدرة غير محدودة كقدرة الله، وهكذا قد كانت قدرة المسيح، لأنه أحيا القلوب وأحيا الأموات بكلمة، وشفى الأمراض بكل أنواعها، وعمل كثيرًا من المعجزات وقال: «لِأَنَّهُ كَمَا أَنَّ ٱلْآبَ لَهُ حَيَاةٌ فِي ذَاتِهِ، كَذَلِكَ أَعْطَى ٱلِابْنَ أَيْضاً أَنْ تَكُونَ لَهُ حَيَاةٌ فِي ذَاتِهِ» (يوحنا ٥: ٢٦). وقال: «لاَ تَتَعَجَّبُوا مِنْ هٰذَا، فَإِنَّهُ تَأْتِي سَاعَةٌ فِيهَا يَسْمَعُ جَمِيعُ ٱلَّذِينَ فِي ٱلْقُبُورِ صَوْتَهُ، فَيَخْرُجُ ٱلَّذِينَ فَعَلُوا ٱلصَّالِحَاتِ إِلَى قِيَامَةِ ٱلْحَيَاةِ وَٱلَّذِينَ

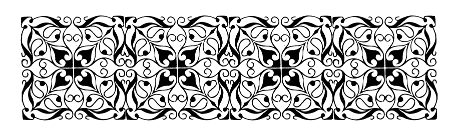
عَمِلُوا ٱلسَّيِّئَاتِ إِلَى قِيَامَةِ ٱلدَّيْنُونَةِ» (يوحنا ٥: ٢٨، ٢٩). وإقامة الأموات في اليوم الأخير والإتيان بأجسادهم التي تلاشت من آلاف السنين لهِيَ أعظم مظاهر القوة الإلهية. فهل يتصور العقل قوة أعظم من هذه؟!

رابعًا: ماذا يجب أن تكون مكانة ذلك الإنسان الذي هو روح الله؟! لا بد أنه يكون أعلى مقام، هكذا مقام السيد المسيح، فإنه بعدما قدَّم نفسه كفَّارة عن خطايا العالم قام من الموت في اليوم الثالث وصعد إلى السماء، وجلس على عرش الله الأسمى. قال القرآن مشيرًا إلى ذلك: «إني متوفيك ورافعك إليّ» (سورة آل عمران ٣:٥٥). وقال الكتاب المقدَّس عن المسيح كمثال الكمال للمؤمنين: «فَلْيَكُنْ فِيكُمْ هٰذَا ٱلْفِكْرُ ٱلَّذِي فِي ٱلْمَسِيحِ يَسُوعَ أَيْضًا: ٱلَّذِي إِذْ كَانَ فِي صُورَةِ ٱللّٰهِ، لَمْ يَحْسِبْ خُلْسَةً أَنْ يَكُونَ مُعَادِلًا لِلّٰهِ. لٰكِنَّهُ أَخْلَى نَفْسَهُ، آخِذاً صُورَةَ عَبْدٍ، صَائِرًا فِي شِبْهِ ٱلنَّاسِ. وَإِذْ وُجِدَ فِي ٱلْهَيْئَةِ كَإِنْسَانٍ، وَضَعَ نَفْسَهُ وَأَطَاعَ حَتَّى ٱلْمَوْتَ مَوْتَ ٱلصَّلِيبِ. لِذٰلِكَ رَفَّعَهُ ٱللّٰهُ أَيْضًا، وَأَعْطَاهُ ٱسْمًا فَوْقَ كُلِّ ٱسْمٍ. لِكَيْ تَجْثُوَ بِٱسْمِ يَسُوعَ كُلُّ رُكْبَةٍ مِمَّنْ فِي ٱلسَّمَاءِ وَمَنْ عَلَى ٱلْأَرْضِ وَمَنْ تَحْتَ ٱلْأَرْضِ، وَيَعْتَرِفَ كُلُّ لِسَانٍ أَنَّ يَسُوعَ ٱلْمَسِيحَ هُوَ رَبٌّ لِمَجْدِ ٱللّٰهِ ٱلْآبِ» (فيلبي٢: ٥-١١).

والآن رأينا أن جميع الألقاب وجميع الأعمال وجميع الصفات التي أسندها القرآن إلى المسيح دليل قاطع على لاهوته، ليت كل مسلمٍ يؤمن به، ويتَّكل على دمِهِ المسفوك من أجل خلاص العالم، وعلى قوَّته القادرة على إحياء القلوب بالتوبة والإيمان وسائر الأعمال الصالحة. آمين





# ٩- آيات الله (أي معجزاته)

## «إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَاةَ وَٱلْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْئَةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَى بِإِذْنِي» (سورة المائدة ٥: ١١٠).

هذه مقالة عن معجزات سيدنا عيسى آملًا أن تصادف أحسن رعاية والتفات. يوجد في الآية معانٍ عظيمة تميِّز مكانة المسيح عن كل مقام، وتجلُّه فوق الآنام. سوف نقسمها في هذه المقالة إلى قسمين، الأول مكانة المسيح كمعلِّم، والثاني مكانته كقدير.

القسم الأول: كل نبي أو رسول ينزل عليه الوحي الشيء بعد الشيء بعد بلوغه سن الرجال، مثال ذلك موسى لم يوح إليه بالتوراة دفعةً واحدةً، بل كتبها تدريجيًا، ورجع في كل معضلة إلى الاستعلام من ربه بعد بلوغه سنًا معتبرًا، ومثل ذلك ما رواه «البخاري» وغيره عن عائشة وابن عباس وغيرهما ما معناه بُعث محمد لأربعين سنة فمكث بمكة ثلاث عشرة سنة يوحى إليه، ثم أُمِرَ بالهجرة إلى المدينة فهاجر عشر سنين، ومات وهو ابن ثلاث وستين سنة. ويُقال إنه كان يسأل ربه ويأتيه جبريل بالجواب حتى أُستكملت سور كتابه.

أمَّا المسيح فبخلاف ذلك، فإنه وُلِدَ نبيًا وعالمًا وحكيمًا؛ بدليل قول القرآن: «تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ» ويظهر ذلك أن نبوَّة المسيح لم تأت إليه من الخارج كسائر الأنبياء بل هي غريزية في ذات شخصه وطبيعته؛ ولهذا السبب وُلِدَ نبيًا ورسولًا وحكيمًا بمعنى أن النبوَّة والحكمة والتوراة والإنجيل كانت موجودة في ذاته حينما كان طفلاً بل جنيناً في بطن أُمِّه. وما يدل على ذلك أنه روح الله وكلمته المتجسِّد الذي وإن كان وُلِد كطفل ووُضع في المهد كسائر الأطفال لكنه لا يزال روح الله العالم

بكل شيء.

عزيزي القارئ لا تدع الأهواء تحول بينك وبين الحق، وفي غير هذا الموضع يقول إن المسيح هو روح الله وكلمته. فيثبت أن المسيح حاصل على النبوَّة من المهد وبالتالي من البطن حسبما تقتضيه لوازم مَن كان بذات شخصه روح الله وكلمته. وهنا انتهينا من القسم الأول فنذكر القسم الثاني من الآية التي تُثبت قُدرة المسيح على المعجزات.

القسم الثاني: يظهر من بداية الآية أن المسيح كان قادرًا على صُنْع المعجزات في المهد، أيضًا كما كان قادرًا على النبوَّة وهذا يزيد الأمر وضوحًا بأنه روح الله شخصيًا، وأن هذه القوة موجودة فيه ولم تأتِ من الخارج كباقي الأنبياء ولو تأملنا في نص الآية كلمة كلمة نجد معجزات المسيح المذكورة فيها شاملة لأركان الخليقة الثلاثة، أي الخلق، والعناية، والبعث.

أمَّا عن الخلق فقد أشار إليه بقوله: «وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْئَةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِي». أمَّا عن العناية أي حفظ الذي خلقه فيدل عليه قوله: «وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِي». أمَّا عن البعث والنشر فيدل عليه القول: «وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَى بِإِذْنِي». فالمسيح بحسب شهادة القرآن «خالق الخلق»، و«حافظ الخلق»، و«ناشر الموتى».

لم يقل القرآن إن المسيح خلق الإنسان، بل قال خلق الطير، ولكنه يصرِّح أنه خلقه على الشكل الذي خلق الله عليه الإنسان كما جاء في التوراة «وَجَبَلَ ٱلرَّبُّ ٱلْإِلٰهُ آدَمَ تُرَاباً مِنَ ٱلْأَرْضِ، وَنَفَخَ فِي أَنْفِهِ نَسَمَةَ حَيَاةٍ. فَصَارَ آدَمُ نَفْسًا حَيَّةً» (تكوين ٢: ٧) بمعنى أنه كما خلق الله الإنسان أولًا من الطين جبلهُ المسيح على هيئة الطير ثم نفخ فيه فصار طيرًا حيًّا، فطريقة الخلق واحدة في العبارتين فالمسيح خالقٌ حقيقيٌّ. هذا هو استدلالنا من نَص الآية وإنه يوافق قول الإنجيل في كولوسي: «فَإِنَّهُ فِيهِ خُلِقَ ٱلْكُلُّ: مَا فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَمَا عَلَى ٱلْأَرْضِ، مَا يُرَى وَمَا لَا يُرَى، سَوَاءٌ كَانَ عُرُوشاً أَمْ سِيَادَاتٍ أَمْ رِيَاسَاتٍ أَمْ سَلَاطِينَ. ٱلْكُلُّ بِهِ وَلَهُ قَدْ خُلِقَ» (كولوسي ١: ١٦).

وبعد الخلق يأتي طبعًا الحفظ، فلو فرضنا أن الله بعدما خلق الإنسان تركه لشأنه لمات حالًا واندثر العالم؛ لذلك حفظه الله بعنايته إلى أجلٍ معلوم. فيشفيه إذا مرض، ويدبِّر له طعامه إذا جاع. كذلك فعَلَ المسيح، فإنه شفى المرضى، وطهَّر البرَصَ، وفتَّح أعين

العميان؛ ليقيم للناس دليلًا محسوسًا أنه هو الخالق والحافظ، وأطعم الجياع خبزًا إذ قيل في الإنجيل إنه من خمس خبزات وسمكتين أطعم آلافًا من الجياع.

وبعد الخلق والعناية به إلى الأجل المحتوم يأتي طبعًا الموت، فإن لم تكن قيامة الأموات فكل شئ باطل أي كأنه لم يكن خلق ولا عناية. إذ أنَّ مصير كل شئ إلى الزوال والفناء، ولكنه ستكون قيامة، وهذه القيامة يعملها المسيح بشخصه كما تصرِّح آية المقالة «وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَى بِإِذْنِي».ومثل ذلك في الإنجيل: «لَا تَتَعَجَّبُوا مِنْ هٰذَا، فَإِنَّهُ تَأْتِي سَاعَةٌ فِيهَا يَسْمَعُ جَمِيعُ ٱلَّذِينَ فِي ٱلْقُبُورِ صَوْتَهُ، فَيَخْرُجُ ٱلَّذِينَ فَعَلُوا ٱلصَّالِحَاتِ إِلَى قِيَامَةِ ٱلْحَيَاةِ وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا ٱلسَّيِّئَاتِ إِلَى قِيَامَةِ ٱلدَّيْنُونَةِ» (يوحنا ٥: ٢٨، ٢٩).

فإن استفدنا من هذه الآية أن المسيح خالق وحافظ وباعث، وما أجمل أن تقارن هذه المعاني بقول الإنجيل عن المسيح: «كُلُّ شَيْءٍ بِهِ كَانَ، وَبِغَيْرِهِ لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ مِمَّا كَانَ. فِيهِ كَانَتِ ٱلْحَيَاةُ، وَٱلْحَيَاةُ كَانَتْ نُورَ ٱلنَّاسِ، وَٱلنُّورُ يُضِيءُ فِي ٱلظُّلْمَةِ، وَٱلظُّلْمَةُ لَمْ تُدْرِكْهُ» (يوحنا ١: ٣-٥). وكرَّر المسيح هذا اللفظ مرات عديدة إذ قال: «أَنَا هُوَ ٱلطَّرِيقُ وَٱلْحَقُّ وَٱلْحَيَاةُ. لَيْسَ أَحَدٌ يَأْتِي إِلَى ٱلْآبِ إِلَّا بِي» (يوحنا ١٤: ٦) «فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «أَنَا هُوَ خُبْزُ ٱلْحَيَاةِ. مَنْ يُقْبِلْ إِلَيَّ فَلاَ يَجُوعُ، وَمَنْ يُؤْمِنْ بِي فَلاَ يَعْطَشُ أَبَدًا» (يوحنا ٦: ٣٥). وقال: «أَنَا هُوَ خُبْزُ ٱلْحَيَاةِ» (يوحنا ٦: ٤٨). وقال أيضاً: «قَالَ لَهَا يَسُوعُ: «أَنَا هُوَ ٱلْقِيَامَةُ وَٱلْحَيَاةُ. مَنْ آمَنَ بِي وَلَوْ مَاتَ فَسَيَحْيَا» (يوحنا ١١: ٢٥).

عزيزي القارئ، إن المسيح هو الذي سيدين العالم في اليوم الأخير كما أنه خلقهم وحفظهم وهداهم ويبعثهم، وقال السيد المسيح: «لِأَنَّ ٱلْآبَ لَا يَدِينُ أَحَدًا، بَلْ قَدْ أَعْطَى كُلَّ ٱلدَّيْنُونَةِ لِلِابْنِ» (يوحنا ٥: ٢٢)



# ١٠- الذبح العظيم

## «وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ» (سورة الصافات ٣٧: ١٠٧)

إن ما ورد في القرآن بأن إبراهيم دعا ربَّه أن يهبهُ غلامًا فبشَّره بإسحاق، ولمَّا بلغ السعي رأى أبوهُ في المنام أنهُ يذبحه، فاعتبر الرؤيا بمنزلة الأمر الصريح بذبحه، وفعلًا شرع إبراهيم في ذبْح ابنه ونداه الله أن يكف عن ذلك وفداه بذبحٍ عظيم.

لاحِظوا هاتين الكلمتين الآخرتين تجدوهما غريبتين جدًا، فإن معظم المفسِّرين أهملوهما لصعوبة فهم الإشارة المقصودة بهما، وإدراك التلميح الخفي المُتضَمَّن فيهما.

نعم أن كلمة «ذبح» مشهورة، ولفظة «عظيم» ليست مجهولة. ولكن وصف الواحدة بالأخرى غريب ومع ذلك فالله لم يتركنا بلا إرشاد، فإن القصة بأكملها وردت في التوراة، ولا يخفي أنه يجب على كل مسلم أن يراجع ذلك الكتاب الإلهي استنارةً واسترشادًا؛ لأنه جاء في سورة الأنعام «ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ» (سورة الأنعام ١٥٤).

فحيث أن التوراة تفصيلًا لكل ما يريد المؤمن فهمه فواجب أن نسمع ما يقوله الكتاب المقدس في هذه المسألة، فيقول الكتاب: «١وَحَدَثَ بَعْدَ هٰذِهِ ٱلْأُمُورِ أَنَّ ٱللهَ ٱمْتَحَنَ إِبْرَاهِيمَ، فَقَالَ لَهُ: «يَا إِبْرَاهِيمُ». فَقَالَ: «هٰئَنَذَا» ٢فَقَالَ: «خُذِ ٱبْنَكَ وَحِيدَكَ ٱلَّذِي تُحِبُّهُ إِسْحَاقَ وَٱذْهَبْ إِلَى أَرْضِ ٱلْمُرِيَّا، وَأَصْعِدْهُ هُنَاكَ مُحْرَقَةً عَلَى أَحَدِ ٱلْجِبَالِ ٱلَّذِي أَقُولُ لَكَ». ٣فَبَكَّرَ إِبْرَاهِيمُ صَبَاحًا وَشَدَّ عَلَى حِمَارِهِ، وَأَخَذَ ٱثْنَيْنِ مِنْ غِلْمَانِهِ مَعَهُ، وَإِسْحَاقَ ٱبْنَهُ، وَشَقَّقَ حَطَبًا لِمُحْرَقَةٍ، وَقَامَ وَذَهَبَ إِلَى ٱلْمَوْضِعِ ٱلَّذِي قَالَ لَهُ ٱللهُ. ٤وَفِي ٱلْيَوْمِ ٱلثَّالِثِ رَفَعَ إِبْرَاهِيمُ عَيْنَيْهِ وَأَبْصَرَ ٱلْمَوْضِعَ مِنْ بَعِيدٍ، ٥فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ لِغُلَامَيْهِ: «ٱجْلِسَا أَنْتُمَا هٰهُنَا مَعَ ٱلْحِمَارِ، وَأَمَّا أَنَا وَٱلْغُلَامُ فَنَذْهَبُ إِلَى هُنَاكَ وَنَسْجُدُ، ثُمَّ نَرْجِعُ إِلَيْكُمَا». ٦فَأَخَذَ إِبْرَاهِيمُ حَطَبَ ٱلْمُحْرَقَةِ وَوَضَعَهُ عَلَى إِسْحَاقَ ٱبْنِهِ، وَأَخَذَ بِيَدِهِ ٱلنَّارَ وَٱلسِّكِّينَ. فَذَهَبَا كِلَاهُمَا مَعًا. ٧وَقَالَ إِسْحَاقُ لِإِبْرَاهِيمَ أَبِيهِ: «يَا أَبِي». فَقَالَ: «هٰئَنَذَا يَا ٱبْنِي». فَقَالَ: «هُوَذَا ٱلنَّارُ وَٱلْحَطَبُ، وَلٰكِنْ أَيْنَ ٱلْخَرُوفُ لِلْمُحْرَقَةِ؟» ٨فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ: «ٱللهُ يَرَى لَهُ ٱلْخَرُوفَ لِلْمُحْرَقَةِ يَا ٱبْنِي». فَذَهَبَا كِلَاهُمَا مَعًا.

٩فَلَمَّا أَتَيَا إِلَى ٱلْمَوْضِعِ ٱلَّذِي قَالَ لَهُ ٱللهُ، بَنَى هُنَاكَ إِبْرَاهِيمُ ٱلْمَذْبَحَ وَرَتَّبَ ٱلْحَطَبَ وَرَبَطَ

إِسْحَاقَ ٱبْنَهُ وَوَضَعَهُ عَلَى ٱلْمَذْبَحِ فَوْقَ ٱلْحَطَبِ.
١٠ثُمَّ مَدَّ إِبْرَاهِيمُ يَدَهُ وَأَخَذَ ٱلسِّكِّينَ لِيَذْبَحَ ٱبْنَهُ.
١١فَنَادَاهُ مَلَاكُ ٱلرَّبِّ مِنَ ٱلسَّمَاءِ وَقَالَ: «إِبْرَاهِيمُ
إِبْرَاهِيمُ». فَقَالَ: «هٰئَنَذَا» ١٢فَقَالَ: «لَا تَمُدَّ يَدَكَ
إِلَى ٱلْغُلَامِ وَلَا تَفْعَلْ بِهِ شَيْئًا، لِأَنِّي ٱلْآنَ عَلِمْتُ
أَنَّكَ خَائِفُ ٱللّٰهَ، فَلَمْ تُمْسِكِ ٱبْنَكَ وَحِيدَكَ
عَنِّي». ١٣فَرَفَعَ إِبْرَاهِيمُ عَيْنَيْهِ وَنَظَرَ وَإِذَا كَبْشٌ
وَرَاءَهُ مُمْسَكًا فِي ٱلْغَابَةِ بِقَرْنَيْهِ، فَذَهَبَ إِبْرَاهِيمُ
وَأَخَذَ ٱلْكَبْشَ وَأَصْعَدَهُ مُحْرَقَةً عِوَضًا عَنِ ٱبْنِهِ»
(تكوين ٢٢: ١-١٣).

فقصد الله بهذا الأمر أن يعلن لإبراهيم الفداء بالسيد المسيح على طريقة رمزية أو تمثيلية، وذلك ظاهر من القصة سواء اعتبرتها حسبما وردت في القرآن أو التوراة؛ لأنه لا يصح ولا يُعقَل أن الله الحكيم يأمر إبراهيم أن يذبح ابنه لمجرد امتحان طاعته ومحبته له، ثم يعود فيفديه بكبش أو بذبحٍ عظيم، فما هي الضرورة إلى ذلك الفداء؟! وما هي حكمة الحكيم في ذبح الخروف عوضًا عن الغلام؟! وإن كان الأمر بذبح الغلام لمجرد الامتحان والطاعة فلا بد أن يكون عقل الله أوسع من هذه الدائرة الضيقة، ونظرة أبعد من هذا المرمى القريب. قال الله: «لِأَنَّ أَفْكَارِي لَيْسَتْ أَفْكَارَكُمْ، وَلَا طُرُقُكُمْ طُرُقِي يَقُولُ ٱلرَّبّ. لِأَنَّهُ كَمَا عَلَتِ ٱلسَّمَاوَاتُ عَنِ ٱلْأَرْضِ هٰكَذَا عَلَتْ طُرُقِي عَنْ طُرُقِكُمْ وَأَفْكَارِي عَنْ أَفْكَارِكُمْ» (إشعياء ٥٥:٨-١٠).

ونحن من تلقاء أنفسنا لم نكن نعلم أن القصة رمزٌ إلى المسيح له المجد لولا أن الله أعلن لنا ذلك في كتابه في مواضع كثيرة، حيث تُذْكَر أنواعٌ أخرى من الرموز المشيرة إلى المسيح بحيث أصبح هذا التعليم مشهورًا وثابتًا على نصوص كتابية لا يحصيها عدد! وورد في التوراة ذِكْر القرابين والذبائح والمحرقات، وكم حُكي عنها أنها فُرِضت على الناس للتكفير عن خطاياهم ولتقربهم إلى الله، حتى أن القرآن أكثَرَ من ذكر هذه القرابين ورواها في مقدمة تاريخ العالم في كلامه عن قابيل (قايين) وهابيل وذكرهما في تاريخ بني إسرائيل ووصفها بأنها قرابين تأكلها نار من السماء وما ذبيحة إبراهيم إلَّا واحدة من ألوف الذبائح التي قدَّمها الآباء الأولون من عهد أبينا آدم إلى موسى ومن عهد موسى إلى المسيح حتى كاد يشغل كل رسوم العبادة والاحتفالات والمناسك الإسرائيلية. فأي عقل سليم يظن أن لا غرض للإله الحكيم من هذه المحرقات التي ظلَّت تملأ الأرض دخانًا

على المذابح في كثير من بقاع الأرض المقدسة مدة أربعة آلاف سنة، وملأ ذكرها صفحات التوراة والزبور من آدم إلى المسيح؟!

نعم لله غرض عظيم من فريضة الذبائح، غرضٌ أعلى من السماوات، غرضٌ تخر له الملائكة سجوداً وتهتف له الأنبياء والمرسلون فرحًا وسرورًا. نعم أن ألوف الذبائح والمحرقات تشير إلى ذبيحة المسيح أي موته على الصليب كفَّارة عن خطايا العالم. فمن هنا نرى أن يسوع وحده هو قربان آدم وهابيل ونوح وإبراهيم وإسحاق ويعقوب والأسباط والأنبياء والمرسلين الذي به نالوا غفران خطاياهم. وما ذبائحهم الحيوانية إلَّا صورةٌ تمثيليةٌ لتقريب تلك الحقيقة السامية إلى عقولهم البشرية، وماتوا على هذا الرجاء كما نعلم من أقوال إشعياء النبي: «وَهُوَ مَجْرُوحٌ لِأَجْلِ مَعَاصِينَا، مَسْحُوقٌ لِأَجْلِ آثَامِنَا. تَأْدِيبُ سَلاَمِنَا عَلَيْهِ، وَبِحُبُرِهِ شُفِينَا. كُلُّنَا كَغَنَمٍ ضَلَلْنَا. مِلْنَا كُلُّ وَاحِدٍ إِلَى طَرِيقِهِ، وَٱلرَّبُّ وَضَعَ عَلَيْهِ إِثْمَ جَمِيعِنَا» (إشعياء ٥٣: ٥،٦). وقيل عن موسى أعظم أنبياء بني إسرائيل أنه آمن بصليب المسيح، واعتمد عليه في فداء نفسه، وعرف أن الذبائح التي رسمها لبني إسرائيل إنما تشير إليه وقد قال عنه الرسول بولس: «بِٱلْإِيمَانِ مُوسَى لَمَّا كَبِرَ أَبَى أَنْ يُدْعَى ٱبْنَ ٱبْنَةِ فِرْعَوْنَ،مُفَضِّلًا بِٱلْأَحْرَى أَنْ يُذَلَّ مَعَ شَعْبِ ٱللهِ عَلَى أَنْ يَكُونَ لَهُ تَمَتُّعٌ وَقْتِيٌّ بِٱلْخَطِيَّةِ،حَاسِبًا عَارَ ٱلْمَسِيحِ (صليب المسيح) غِنًى أَعْظَمَ مِنْ خَزَائِنِ مِصْرَ، لِأَنَّهُ كَانَ يَنْظُرُ إِلَى ٱلْمُجَازَاةِ» (عبرانيين ١١: ٢٤-٢٦)

بعدما سمعتم كل هذا لا يجوز أن يكون عندكم شك في أن ذبيحة إبراهيم تشير إلى المسيح، فهو دون سواه الذِّبْح العظيم الذي قدَّمه الله فداءً ليس عن إسحاق بل عن كل العالم. وأمَّا الغنم فلا تفدي ولا تخلِّص ولا تقرِّب إلى الله زلفى، وما ذبحها بعد المسيح إلَّا خسارة وجحود لدم المسيح. حقًا يا إخواني ما من أحد من بني آدم إلَّا مذنب أثيم؛ من أجْل ذلك كلُّنا محتاجون إلى فادٍ قدُّس بلا عيب ولا دنس ولا زلل. فادٍ عظيم، دمه أعظم قيمة من دماء البشر جميعًا حتى تُقبَل فدية عنهم. فلا تستهينوا بنعمة الله العظمى؛ لأنه ليس في ذخائر السماوات ذخيرة أعظم من ذلك الدم الذي سُفِك على الصليب من أجْلِ خطاياكم.

# ١١- هل توفى؟!

«إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ»

(سورة آل عمران ٣: ٥٥).

إن العاقل هو من يعمل لدنياه كأنه يعيش أبدا، ويعمل لآخرته كأنه يموت غدًا. وخيركم مَن تدرَّع بالحق واستهدى سبيل الهدى. فحكِّم العقل فيما غلب عليه الباطل، فإن العقل يستجلي أضواء الحقيقة وإن حجبتها عن الأبصار حُجُب الغايات، وسترتها عن البصائر كثرة الشكوك المُختلَقة. ولما كان لكل غاية سبيل مرسوم، كانت سُبُل الحياة الأبدية الإيمان الصحيح، وسبيل الإيمان معرفة الحقيقة، وسبيل الحقيقة البحث والاستقصاء. ففتشوا تجدوا، ابحثوا عن الإيمان الصحيح تهتدوا، فليس الدين وراثة، ولا يضرنا البحث إن لم يفد. فليس عالمٌ كمن جهل، ولا عابدٌ عن ظنٍ كمؤمن عن يقين، واعلموا أن ربنا ومخلِّصنا يسوع المسيح قد مات بشهادة التواتر القطعي الذي لا يجوز لعقل إنكاره، بل إن الطعن في الخبر المتواتر يوجب إنكار نبوَّة محمد بل ووجوده ووجود سائر الأنبياء. وهاكم أدلّتنا على موت ربنا ومخلِّصنا يسوع المسيح:

الدليل الأول: شهادة التاريخ الوثني: إن تاسيتوس الذي وُلِدَ بعد المسيح بعشرين سنة قال: «إن المسيحيين في أواخر ذلك الجيل ابتدءوا ينتشرون بسرعة في أقسام كثيرة من الإمبراطورية»، وقال في الفصل ١٥ من تاريخه: «وهذا الاسم (أي المسيحيين) مشتق من المسيح الذي قُتِل بأمر بيلاطس البُنطي الوالي في أيام طيباريوس» ولما دخل الإمبراطور تراجان الروماني إنطاكية سنة ١٠٧ أو بعد سنة ١١٦م وحَكَمَ على الأُسقف أغناطيوس بأن يُلقى للأسود لتفترسه، شهد الأسقف للمسيح مُظهِرًا اعتقاده بأنه سيُقبَل حالًا قي ملكوته. فارتبك الإمبراطور قائلًا: «هل تعني أنت ذلك الذي صُلِب بأمر بيلاطس البنطي؟». وبعد المسيح بنحو قرن ألَّفَ سالسوس الفيلسوف كتابًا أكثر فيه الاعتراضات على الدين المسيحي، واستشهد على عدم

ألوهية المسيح بأنه حُكِمَ عليه بالموت، وسخر بتسميته إيَّاه بالمصلوب. وفي ذلك الوقت كان فيلسوف آخر يوناني اسمه لوسيان كثير السخرية بالديانة المسيحية قال: «قد رفضوا الآلهة اليونانية وصاروا يعبدون سفسطيًا مصلوبًا يعيشون حسب شرائعه».

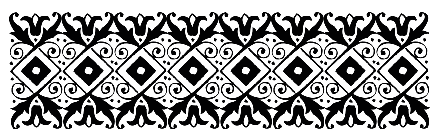
الدليل الثاني: شهادة التاريخ اليهودي: إن فلافيوس يوسيفوس المولود في أورشليم بعد المسيح قال في تاريخه: «إن بيلاطس حكم على المسيح بالصلب بطلب رؤساء الشعب بيننا، والذين أحبوا المسيح أولًا لم يتركوه، وها هم باقون للآن يُدعون مسيحيين نسبةً إليه» وفي التلمود المطبوع في أمستردام صفحة ٤٣ «إن يسوع قد صُلِبَ قبل الفصح بيوم واحد»

الدليل الثالث: الطقوس والفرائض: إن الطقوس والفرائض القديمة عند المسيحيين منذ عهد الرسل إلى يومنا هذا تشهد بصلبه يوم الجمعة وقيامته يوم الأحد؛ لذلك نُقِلَ يوم السبت أي الراحة إلى يوم الأحد. وأيضًا إجراء فريضتي المعمودية والعشاء الرباني وممارستهما عند جميع المسيحيين منذ تأسيس ديانتهم إلى يومنا هذا تذكارًا لموته وقيامته لأعظم تواتر.

الدليل الرابع: نبوَّات العهد القديم: إن الآيات الكثيرة الواردة في أسفار العهد القديم تُعدُّ بالمئات منها الصريحة والواضحة ومنها المرموزة الملوَّحة كلها تثبت موت المسيح خصوصًا أعمال الرسل الذين يسميهم القرآن حواريين، أساسها كلها موت المسيح وقيامته ولا حاجة لنا هنا أن ننقل منها، وإن أردت التعمُّق فعليك بقراءة كتاب «الصليب في الإنجيل والقرآن».

الدليل الخامس: شهادة القرآن: كما في سورة آل عمران «إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ» (سورة آل عمران ٣: ٥٥). أما هذه شهادة صريحة بموته ثم رفعه إلى الله في السماء. وإن كان بعض المفسِّرين يؤوّلونها بما ينطبق على هواهم، فهو رجوع عن الواضح إلى الغامض، وعن الحقيقة إلى المجاز الذي لا يجوز في مثل هذه الحادثة بعد أن كثرت حولها الشكوك والأوهام. وهل يليق بحكمة الله الحكيم الذي هو بما سيكون عليم أن يترك القول الصريح الذي يسهُلُ إدراكه وفهمه ويكلِّم الناس بالكنايات

والمجازات حتى تتبلبل الأفكار، وتتباين الآراء والأفهام؟! وهل يليق بعدل الله ورحمته أن يغش صفيَّته القديسة العذراء مريم ويدعها تنتحب تحت قدمي غير ولدها ظانةً أنه هو؟! حاشا لعدل الله ورحمته من ذلك! بل هو الحكيم اللطيف بعباده لا يضع المجاز في موضع يُوجِبُ الشك والريب ثم يدين العباد على شكهم وريبهم في عدم وصولهم للحقيقة. وهذا ابن عباس، والبيضاوي، وابن كثير وابن إسحاق ووهب يفسِّرون قول القرآن «متوفيك» بمعنى «مميتك قبل رفعك». لكنهم ينكرون موته على الصليب خوفًا من مناقضة آية أخرى في القرآن. ثم إن اختلافهم في مدة الموت، وفي وقته أكان قبل الرفع أم في أثنائه، وكم ساعة كانت مدة الموت، يدلنا أنهم لا يجزمون بصحة الخبر ولا يستقونه من مصدر واحد معين بل من قبيل الظن والرجم بالغيب إذ أن مَن ينكر كليةً حقيقة ما ثم يعود ويعترف بجزء منها، ثم تختلف الأقوال في ذلك الجزء المُعترف به لا يكون مرجعًا يعوَّلُ عليه ولا حتى بالدليل والبرهان. وحيث لا يوجد عندنا اختلاف على موت مخلِّصنا المسيح فبرهان التواتر القطعي المار ذكره يصرِّح المسيحيون بأنه مات ولكن لا وقت الرفع ولا لبث ثلاث ساعات ولا سبعًا بل مات على الصليب بأمر بيلاطس البنطي. ومَنْ يقول لم يُصلَب بل نجاه الله من أيدي أعدائه اليهود بمعجزة إلقاء الشبه على غيره، نقول له إن المعجزة ليست في تضليل الأبصار بل في الموت على الصليب والقيامة في اليوم الثالث بعد الموت. فهذه أخلق بأن تكون معجزة وأدلّ على قدرة الله تعالى. وأيضًا إن اليهود ظنوا أنهم بصلبهم للمسيح يموت موتًا أبديًا وتتلاشى دعوته ويزول أثرها من العالم. فتقدم إلى الصليب باختياره ومات عليه ولسان حاله يقول: «قد عملتم كلَّ ما في استطاعتكم وقدرتكم ولكن قدرة الله تفوق الجميع، فهو يغلب الموت بالحياة، وإذا كان الموت طريق الناس إلى الحياة الثانية فالمسيح قد فتح بموته باب الحياة، مات ليحيا ويُحي معه العالم، ومهَّد للناس بموته سبيل الخلاص والحياة الأبدية. فمن آمن فاز ونجا، ومن ضلَّ رُدَّ في وجهه باب الحياة فكان من المبعدين وعن رحمة الله من المطرودين.



# ١٢- هدى للناس

«نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَابَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ ٱلتَّوْرَاةَ وَٱلْإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلُ هُدىً لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ ٱلْفُرْقَانَ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ ٱللّٰهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱللّٰهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنْتِقَامٍ»

(سورة آل عمران ٣: ٣، ٤)

من تأمَّل في هذه الآية علم أن القرآن جاء مصدِّقًا للتوراة والإنجيل، وأنهما منزلان من عند الله لهداية البشر. ولما كانت الحالة هكذا فلماذا لا يعتنِ المسلمون بدراستهما وتفهَّم معانيهما مع بساطة ألفاظهما وسلاسة أساليبهما؟! فالقرآن ينادي صراحة وبلا التباس أن التوراة والإنجيل هدى للناس. ألعلَّ المانع هو ما يدَّعيه البعض من تحريف أو تبديل فيهما؟! مع أن هذه الدعوى لم تقم عليها بيِّنة البتة!!

وإن تكن إقامة البيِّنة على المسلمين (والبيِّنة على مَن ادَّعى) ولا بيِّنة لهم قطعًا، فلا بأس من إيراد بعض البراهين القرآنية والأدلَّة العقلية على عدم إمكان تحريف أو تبديل في الكتاب المقدَّس. إن التحريف المُدَّعى به فلا بد وأن يكون حدث قبل نزول القرآن أو أثناء نزوله أو بعد ذلك، ولا رابع لهذه الحالات الثلاثة. فإن كان التحريف قد حدث قبل نزول القرآن، فهو بنفسه يكذِّب هذه الدعوى إذ لا يخفي أن القرآن قد جاء بعد إنزال الإنجيل بنحو ٦٠٠ سنة، وهو يصف التوراة والإنجيل بأنهما هدى للناس وأن فيها نور وموعظة للمتقين، ويصرِّح أنه قد جاء مصدِّقًا لما بين يديه ومهيمنًا على الكتاب. فكيف يدَّعي مسلم بعد ذلك ويقول بتحريف الكتاب المقدَّس قبل القرآن والقرآن يقول: «وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِٱلآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ أُولٰئِكَ عَلَى هُدىً مِنْ رَبِهِمْ وَأُولٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ» (سورة البقرة ٢: ٤، ٥). وكيف يتوهَّم مسلم أن الكتاب المقدَّس محرَّف قبل القرآن وفيه «يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِٱللّٰهِ وَرَسُولِهِ وَٱلْكِتَابِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَٱلْكِتَابِ ٱلَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِٱللّٰهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلًا بَعِيدًا» (سورة النساء ٤:

١٣٦). فهل يأمر القرآن الذين آمنوا به أن يؤمنوا بكتاب محرَّف ومُبدَّل ويصف من كفر به بالضلال البعيد؟!

أيها المؤمنون، أما يبطل دعوى التحريف للكتابين ما في (سورة المائدة ٥: ٤٣) «وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ ٱلتَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ» ويسجِّل لنا ابن كثير المفسِّر الإسلامي المشهور وجود نسخة سليمة من التوراة كانت بين يدي نبي الإسلام نفسه، وعندما جاء بعض اليهود يسألونه عن عقوبة الزنا، فأخذ الوسادة التي كان يجلس عليها ووضع التوراة فوقها، ثم أمسك بالتوراة وقال: «آمنت بك وبمن أنزلك» . وكذلك الآية «وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ ٱلْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ. وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ ٱللهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ ٱللهُ فَأُولٰئِكَ هُمُ ٱلْفَاسِقُونَ. وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ ٱلْكِتَابَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ» وفي الآية ٦٨ «قُلْ يَا أَهْلَ ٱلْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا ٱلتَّوْرَاةَ وَٱلْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ» وفي (سورة يونس ١٠: ٩٤) «وإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك». وأمثال هذه الآيات كثيرة جداً وبأدنى تأمُّل يتبيَّن جليًّا أن القرآن يشهد في آيات عديدة أن التوراة والإنجيل منذ بدء نزولهما إلى زمن نزول القرآن لم يعترهما تغيير ولا تبديل، وإلَّا فكيف يأْمُرُ المسلمين بالإيمان بهما؟ وكيف يكون مصدِّقًا لهما؟ وكيف يخبر عنهما أنهما فيهما حُكم الله؟ وكيف يقول لمحمد فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك؟

وإن كان المدَّعي يقول إن التحريف اعترى الكتاب المقدَّس بعد نزول القرآن، فهذه دعوى مردودة إذ لا برهان عليها. ويجدر بنا هنا أن نأتي ببعض البراهين والأدلة العقلية والمنطقية على رد هذه الدعوى. هل يُعقَل أن يجتمع المسيحيين على اختلاف مللهم وفرَقِهم، وتعدُّد لغاتهم، وتباين عاداتهم وجنسياتهم، وتنآئي أوطانهم وحكوماتهم، وتشتتهم في الأقطار المتباعدة، ويتفقوا مع اليهود أعدائهم على تغيير وتحريف في كتبهم التي يعتقدون أنها الأساس والمرجع لكل مسألة في دينهم، مع علمهم أنها منزَّلة بوحي ومكتوبة بإلهام من الله وفي الكتاب المقدَّس مكتوب «لَا تَزِيدُوا عَلَى ٱلْكَلَامِ ٱلَّذِي أَنَا أُوصِيكُمْ بِهِ وَلَا تُنَقِّصُوا مِنْهُ» (التثنية ٤ :٢)، و«اَلسَّمَاءُ وَٱلْأَرْضُ

تَزُولاَنِ وَلٰكِنَّ كَلاَمِي لَا يَزُولُ» (متى ٢٤ : ٣٥) و(مرقس ١٣ : ٣١) و(لوقا ٢١ : ٣٣). في سفر الرؤيا «إِنْ كَانَ أَحَدٌ يَزِيدُ عَلَى هٰذَا، يَزِيدُ ٱللّٰهُ عَلَيْهِ ٱلضَّرَبَاتِ ٱلْمَكْتُوبَةَ فِي هٰذَا ٱلْكِتَابِ. وَإِنْ كَانَ أَحَدٌ يَحْذِفُ مِنْ أَقْوَالِ كِتَابِ هٰذِهِ ٱلنُّبُوَّةِ، يَحْذِفُ ٱللّٰهُ نَصِيبَهُ مِنْ سِفْرِ ٱلْحَيَاةِ، وَمِنَ ٱلْمَدِينَةِ الْمُقَدَّسَةِ، وَمِنَ ٱلْمَكْتُوبِ فِي هٰذَا ٱلْكِتَابِ» مع أن أحبار اليهود قبل الإسلام قد اعتنوا بإحصاء كلماته وأنواع حروفه حتى أنهم عدوا نقطه أيضاً. ومع كثرة نُسخه التي تُعَدُّ بمئات الألوف من المخطوطات وتوجد الآن في شتى متاحف الدول الأوربية بعضها كُتِبَ في زمن القرآن وبعضها قبله وينتهي تاريخ بعضها إلى القرن الرابع الميلادي أي قبل القرآن بنحو ٢٠٠ إلى ٣٠٠ سنة وتلك النُّسخ المكتوبة بلغات شتى وأزمنة مختلفة هي متفقة مع بعضها فهل يُتَصَوَّر تحريفها أو تبديلها؟! ولو صح هذا الفرض –وهو أمرٌ بعيد جدًا– واجتمع اليهود مع أعدائهم النصارى من جميع الفرق واللغات والأقطار وحرفوا كتب دينهم فلأي غاية حرَّفوها؟! ولماذا لم يحرِّفوا ما ظاهره فيه صعوبة أي التناقض الوهمي ؟ وفي أي زمن كان هذا الاجتماع؟! ولماذا لم يُذكَر في التاريخ؟!

فهل هذه الأدلة كافية؟!

يقول القرآن: «قولوا آمنّا بالله وما أُنْزل إلينا وما أُنْزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أُتي موسى وعيسى وما أُتي النبيّون من ربهم لا نفرّق بين أحد منهم» (سورة البقرة ٢: ١٣٧). ومن يقول أنا أومن بالتوراة والإنجيل وكل الكتب السماوية من غير تلاوتها –قراءتها– فهو يغش نفسه؛ لأن الإيمان هو إقرارٌ باللسان، وعملٌ بالأركان. فكيف يمكن أن نعمل بما لا نطلع عليه؟! ففتش عزيزي القارئ وابحث عن الحقيقة فهي منشودة كل عاقل!




السَّمَاءُ وَالأَرْضُ تَزُولاَنِ
وَلَكِنَّ كَلاَمِي لاَ يَزُولُ
كلمة المسيح حسب البشير مرقس
الاصحاح ١٣ : ٣١

لَيْسَ بِأَحَدٍ غَيْرِهِ

# الخلاص

لأَنْ لَيْسَ اسْمٌ آخَرُ تَحْتَ السَّمَاءِ

قَدْ أُعْطِيَ بَيْنَ النَّاسِ بِهِ يَنْبَغِي أَنْ نَخْلُصَ

اعمال الرسل ٤ : ١٢